المعاني التربوية في الأربعين النووية (١)

د.محمد عمر دولة❁

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّرَ فهدى. والصلاة والسلام على خير الورى محمد بن عبد الله الذي كان في الرتبة بين الأنبياء أولا وإن جاء في البعثة آخرا فهو *المجلِّي والوَرَى إلى وَرا*[١] وعلى آله الشرفاء، وأصحابه النبلاء، ومن تبعهم من الأخيار والفضلاء.

وبعد، فلعلَّ القُراء يتساءلون: لماذا (الأربعون)؟ وما فائدةُ استخراجِ الدروس التربوية من الأربعين النووية؟

الجواب: **أولاً**: لأنَّ الأربعين النووية كتابُ وليٍّ من أولياء الله الصالحين، مِمَّنْ نَصحَ الخلقَ، وصَدَعَ بالحق، ونبغَ في العلوم، وعكفَ سنين يدرس في اليوم الواحد ما يزيد على عشرة فنون.[٢]

❁ باحث في مُنظَّمة المشكاة الخيريَّة وجمعية القُرآن الكريم ـ السُّودان.

١ البيت من مقدمة [مراقي السّعود] للشيخ إبراهيم الشنقيطي رحمه الله تعالى.

٢ فمحيي الدين يحيى بن شرف النووي حافظ من حفاظ الحديث الشريف، كما تجده في (تذكرة الحفاظ) للذهبي و(طبقات الحفاظ) للسيوطي، وهو فقيه مبرّز في فقه الشافعيّة وصاحب (المجموع شرح المهذّب)، وهو عالم بارعٌ في العربية يشهد لذلك (شرحه لصحيح مسلم) و(تهذيب الأسماء واللغات)، كما أنه إمام في الزهد والورع حتى لقد حبس نفسه عن الفواكه وقال: دمشق كثيرة الأوقاف ولا تطيب نفسي بأكل ذلك، وكان رضي الله عنه يجهر بالنصيحة للحكام يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، قال ابن فرح عن النووي: "صار إلى ثلاث مراتب،كل مرتبة لو كانت لشخص لشُدَّت إليه الرّحال: العلم،والزهد،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". فقد وضع الله محبته في قلوب المسلمين فأقبلوا على كتبه المباركة مثل (رياض الصالحين) و(الأذكار) و(التبيان في آداب حملة القرآن) و(شرح مسلم) و(المجموع) و(التقريب) لمقدمة ابن الصلاح. وقد ذكر النووي رحمه الله أنّ الله بارك في وقته وذلك ظاهر في آثاره العظيمة وانتفاع الناس به في عُمُر قصير ووقت يسير لم يتجاوز خمسة وأربعين عاماً إلا بستة أشهر؛ لأنه وُلد في محرّم إحدى وثلاثين وستّمائة وتوفي في رجب سنة ستّ وسبعين وستمائة. ورحم الله التاج السبكي ما أحسن ما ترجم به للحافظ النووي في طبقات الشافعية الكبرى حيث قال: "الشيخ العلامة محيي الدين أبو زكريا شيخ الإسلام وأستاذ المتأخرين وحجّة الله على اللاحقين والدّاعي إلى سبيل السالفين. كان يحيى رحمه الله سيّدا وحصورا، وليثاً على النفس هصورا، وزاهدا لم يُبالِ بخراب الدنيا إذا صيّر دينه رَبعا معمورا! له الزهد والقناعة ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على

ثانياً: أنه أحيا سُنةَ المؤلِّفين السابِقين في تصنيفِهم كُتبَ الأربعين: قال النووي في مقدمة الأربعين: "وقد صنَّفَ العلماءُ رحمهم الله في هذا الباب ما لا يُحصَى من المصنَّفات، فأولُ مَن عَلِمتُه صنَّفَ فيه عبد الله بن المبارك، ثم محمد بن أسلم الطوسي العالم الرّباني ثم الحسن بن سفيان النّسوي وأبو بكر الآجُرّي وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني والدارقطني والحاكم وأبو نُعيم وأبو عبد الرحمن السّلمي وأبو سعيد الماليني وأبو عثمان الصابوني وعبد الله بن محمد الأنصاري وأبو بكر البيهقي، وخلائق لا يُحْصَون من المتقدِّمين والمتأخرّين.[1] وقد استخرتُ الله في جمعِ أربعين حديثاً؛ اقتداءً بهؤلاء الأئمة الأعلام وحُفاظ الإسلام".

ثالثاً: أنه كتابٌ جامعٌ لأغراض مَن صنَّف في (الأربعين) فلم يقتصر على موضوعٍ واحدٍ، بل اشتمل على أصولٍ كثيرة من الفوائد التربوية. قال رحمه الله: "من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد وبعضهم في الزهد وبعضهم في الآداب وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها. وقد

أنواع الخير لا يَصرف ساعة في غير طاعة! هذا مع التفنّن في أنواع العلوم: فقها ومتونَ أحاديث وأسماءَ رجال ولغةً وصرفاً وغير ذلك؛ وأنا إذا أردتُ أن أُجمل تفاصيل فضله، وأدلّ الخلق على مبلغ مقداره بمختصر القول وفَصْله، لم أزد على بيتين أنشدنيهما من لفظه لنفسه الشيخ الإمام (يريد أباه قاضي القضاة الحافظ العلامة تقي الدين السبكي رحمه الله وقد ترجم التاج لوالده ترجمةً تُكتَب بماء الذهب بَرَّ بها أباه رحمهما الله)، وكان من حديثهما أنه – أعني الوالد رحمه الله – لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة كان يخرج في الليل إلى إيوانها؛ فيتهجّد... ويمرّغ وجهه على البساط. فأنشدني الوالد لنفسه:

وفي دار الحديث لطيف معنى على بُسُط لها أصبو وآوي
عسى أنّي أمسّ بحرّ وجهي كاناً مسّه قَدَمُ النواوي

طبقات الشافعية الكبرى ٣٨٥/٨ – ٣٩٦.

١ زاد محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله جماعة على هؤلاء منهم: إسماعيل بن عبد الغفار الفارسي، وعبد القاهر بن عبد الله الرهاوي، وأبو طاهر السلفي، ومحمد بن أبي الصيف، ومحمد بن محمد بن علي الطائي، ومحمد بن أحمد الفاسي صاحب (شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام)، وأبو القاسم بن عساكر الذي ألّف (الأربعين البلدانية) و(الأربعين الطوال) و(الأربعين في الجهاد)، ومنهم كذلك محمد بن إسحاق الكلاباذي، ومحمد بن إبراهيم المقري... رحمة الله عليهم أجمعين. انظر: الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنة المشرّفة ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

رأيتُ جمع أربعين أهمّ من هذا كله، وهي أربعون حديثا مُشتمِلةٌ على جميع ذلك. وكلُّ حديث منها قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعد الدين، وقد وصفَه العلماء بأنَّ مدارَ الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك".

رابعاً: أنّه كتابٌ يسير الفهم، كثير العلم. فقد وَفَّقَ الله النوويَّ إلى اختيارِ أحاديثَ سهلةِ المعاني فخمةِ المباني، قريبةِ العبارة بعيدةِ الإشارة، تجنّبَ فيها غريبَ اللغة، حتى يسهل على عامة المسلمين فهمها، ولا يسع أحدا جهلُها.

خامساً: أنّه صغيرُ الحجم؛ يسهُل على أهل زماننا مُدارسته ومُذاكرته، صفحاته قليلة ولكن معانيه نبيلة جليلة. وما قلَّ وكفى خيرٌ مما كَثُر وألهى، وقليلٌ تدوم على تعهُّده وترتع في فوائده؛ خيرٌ من كثيرٍ تنقطع عن مطالعته.

وإنَّ طبيعة هذا البحث التربوي لأحاديث الأربعين؛ تقتضي جمعَ الأحاديث المتصلة بموضوعٍ واحد في سياقٍ واحدٍ؛ لتكتمل صورتها التربوية في ذهنِ طالب العلم. وهذا يلزم منه تقديم بعض الأحاديث[1] إلى مكانها الذي يُعطيها دلالاتٍ تربوية تزيدُها بياناً، وتضيف إلى معانيها دليلا وبرهانا، من قبيل ضمِّ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (رُفِعت الأقلامُ وجفَّت الصحف) إلى حديث ابن مسعودﷺ: (ويؤمَر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)؛ فإنَّ معناهما التربوي واحدٌ: علاقة الإيمان بالقدر بثمرة التوكل على الله وحده.[2]

---

١ مع بيان ترقيمها في الأربعين؛ جمعاً بين المصلحتين.

٢ وقد زاد ابن رجب في أحاديث الأربعين ما بلغ بها الخمسين في [جامع العلوم والحكم]. كما أنّ لي الأسوةَ بالعلامة (عباس حسن) فإنه ذكر في مقدمة كتابه القيم [النحو الوافي] أنه يلتزم بتبويب ابن مالك في [الألفية]، ولكنه يتصرّف في ترتيب الأبيات؛ بما يراه مناسبا لغرض البحث والدراسة. والله الموفق.

وقد اعتمدتُ في هذا البحث على الترجمة لرواة الأربعين، وبيان فقه الأحاديث، مع العناية بالدروس التربوية المستفادة من (الأربعين النووية). وهي اثنا عشر درساً.

ولعلَّ الناظر في هذه الدروس التربوية في (الأربعين النووية) يرى أنَّها تمثل منظومةً أخلاقيةً؛ باشتمالِها على أصولٍ عقديةٍ: مثل: الإخلاص، ومباحث الإسلام والإيمان، والقدر والتوكل، وتضمنها كذلك بعض النواحي الاجتماعية: كالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفاظ على حقوق المسلمين، والتراحم بينهم. واشتمالها على نواحٍ منهجية، مثل كثرة أبواب الخير، والتحذير من الابتداع في الدين، والتزام الورع، ومراعاة الحقوق والواجبات، والاستقامة والمراقبة والاهتمام بما ينفع.

والفضل بعد الله تعالى للنووي رحمه الله؛ فهو جامعُ هذه الأحاديث، وصاحب الفقه والنظر؛ وما هذه بأولِ بَرَكَتِهِ ﷺ، أسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرش الكريم أن يجمعنا به {فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}(القمر ٥٤،٥٥).

المبحث الأول: درس (الإخلاص): ويتضمّن شرح حديث (الأعمال بالنيات).

الحديث الأول: عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). رواه إماما المحدّثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهْ البخاري الجُعفي وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما اللّذين هما أصحّ الكتب المصنَّفة".

المطلب الأول: فقه الحديث:

[١] حديث الأعمال بالنيّات أصلٌ عظيم في هذا الدين؛ لأنّ الأعمال كلّها مُعلَّقة بالنيّة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(البينة:٥)

---

١ هو شيخ الإسلام وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نُفيل العدوي "أسلم بمكة قديما، وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله ﷺ، وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وولي الخلافة عشرَ سنين وخمسةَ أشهر" تهذيب الكمال لأبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمان المِزِّي٢١/٣١٦-٣١٧. قال ابن عبد البر: "كان إسلامه عزّا ظهر به الإسلام بدعوة النبي ﷺ" الاستيعاب لابن عبد البر٣/١١٤٥ نقلا عن تحقيق الشيخ بشار عواد لتهذيب الكمال ٢١/٣٢٢. وقد شهد له النبي ﷺ بالجنة وحدّثه عن قصرٍ له فيها، كما شهد له بالدين والعلم حيث قال عُرض عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرّه. قالوا: فما أوّلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: الدين) رواه البخاري. وجيء ﷺ بقدح لبن قال:(فشربت منه حتى رأيت الرِّيَّ يخرج من أظفاري ثم أعطيتُ فضلي عمر. قالوا: فما أوّلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: العلم) رواه البخاري. وقال النبي ﷺ: (قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون فإن يكن في هذه الأمة أحدٌ فعمر بن الخطاب) رواه البخاري. قال أبو الحجاج المزّي: "نزل القرآن بموافقته في أسرى بدر، وفي الحجاب، وفي تحريم الخمر، وفي مقام إبراهيم" تهذيب الكمال ٢١/٣٢٤. وهو الذي نشر الله الإسلام على يديه كما أخبر النبي ﷺ بذلك قائلاً: (فلم أرَ عبقريا يفري فريّه) قال ابن عبد البَرّ: "فتح الله له الفتوح بالشام والعراق ومصر، ودوّن الدواوين في العطاء، ورتّب الناس فيه على سوابقهم، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي نوَّر شهر الصوم بصلاة الأشفاع فيه، وأرّخ التاريخ من الهجرة التي بأيدي الناس إلى اليوم، وهو أول مَن سُمِّيَ أمير المؤمنين، وهو أول من اتخذ الدِّرَّة، وكان نقش خاتمه (كفى بالموت واعظاً يا عمر)" الاستيعاب ٣/ ١١٤٥ – ١١٥٠. وقد كان رضي الله عنه شديدا على الكفار رحيما بالمؤمنين تُضرب بعدله الأمثال، قريب الدمعة، حاضر الفكرة يُحبّ القرآن ويبكي عند آياته معتبرا كما روى البخاري في كتاب الأذان (باب إذا بكى الإمام) قال عبد الله بن شدّاد:"سمعتُ نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأُ (إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله). ونختم بما استهلّ به الذهبي ترجمة عمر في (تذكرة الحفاظ) قائلاً: "فرَّ منه الشيطان، وأُعليَ به الإيمان، وأعلن الأذان... وأين مثل أبي حفص؟ فما دار الفلك على شكل عمر!" تذكرة الحفاظ للذهبي١/٥.

[٢] يتضمن هذا الحديث وصية الله تعالى للأوّلين والآخرين بالإخلاص. كما نقل ابن حجر عن أبي العالية الرياحي في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ (الشورى:١٣) قال: "أوصاهم بالإخلاص في عبادته".[١] وما أعظمَ أن تُضم إلى الوصية الأخرى بالتقوى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ﴾ (النساء:١٣١).

[٣] هذا الحديث الجليل ذكر العلماء أنه ثلث العلم أو ربعه. قال الحافظ ابن حجر: "تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث. قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النبيﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمن بن مهدي والشافعي ـ فيما نقله البُويطي عنه ـ وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني وأبو داود والترمذي والدارقطني وحمزة الكناني على أنه ثلث الإسلام، ومنهم من قال: ربعه، واختلفوا في تعيين الباقي. وقال ابن مهدي أيضا: يدخل في ثلاثين بابا من العلم. وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابا. ويحتمل أن يريد بهذا العدد المبالغة. وقال عبد الرحمن بن مهدي أيضا: ينبغي أن يُجعل هذا الحديث رأس كل باب".[٢]

[٤] اختُلِف في معنى (الثلث) في كلام العلماء: فقد "وجَّهَ البيهقي كون حديث (إنما الأعمال بالنيَّات) ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه. فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنَّها قد تكون عبادةً مُستقلةً وغيرها يحتاج إليها. ومِن ثَم ورد (نية المؤمن خيرٌ من عمله) فإذا نظرتَ إليها كانت خير الأمرين. وكلام الإمام أحمد يدلّ على

---

١ فتح الباري ١/ ١٧
٢ المرجع السابق.

أنه أراد بكونه ثلثَ العلم أنه أحدُ القواعد الثلاث التي تُردّ إليها الأحكام عنده، وهي هذا الحديث وحديث (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ) و(الحلال بيِّنٌ والحرام بيّن)".[1]

المطلب الثاني: المعاني التربوية للحديث:

لقد وُفق الإمام النووي رحمه الله إلى حُسنِ اختيارِ البداية التي يَلِجُ من خلالها إلى مخاطبة قلوب المسلمين. فذلكم من براعة الاستهلال: أن يبدأ برأس الأمر وباب القبول وأساس الدّين: وهو الإخلاص لله تعالى. وهذا يُذكِّر بصنيع (إمام هذه الصنعة)[2] البخاري حين ترجم (باب العلم قبل القول والعمل) ذكر فيه قول الله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله)؛كيف لا وهو للعلماء قدوةٌ في الابتداء بـ(الأعمال بالنيات)؟!

فنخلص من بين معاني الإخلاص إلى هذه المعالم:

[١] ليس الاعتبار لكثرة الأعمال، فقد قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً }(الفرقان:٢٣) وقالﷺ: (إنّ المفلس من أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم ثم طُرحت عليه، ثم طُرح في النار) رواه مسلم. فلا بدَّ من التقوى ليكون للأعمال ثمرة كما قال عز وجل: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (المائدة:٢٧).

---

١ ذكر ذلك كله الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح.
٢ لقبه بذلك الحافظ السخاوي في فتح المغيث.

[٢] ليست العبرة كذلك في عظمة هذه الأعمال من حيث هي، أو أنها كبيرة في أعين الناس. فالجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وأعظم الأعمال أن يقاتل المرء في سبيل الله بنفسه وماله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}(الصف:١٠-١١) ولكن إذا قاتل ليقال شجاع وليرى مكانه من الناس وليثبت أن له حميةً أو ولاءً لقبيلة أو غيرها ـ وليس في سبيل إعلاء كلمة الله ـ فإنه محروم من الأجر ولو قُتل في الجهاد بل هو من الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النار. وقد روى الشيخان عن أبي موسىﷺ قال: (سُئل رسول اللهﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول اللهﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).

[٣] نيّة التقرُّب إلى الله هي العمدة في قبول العمل صغيرا كان أو كبيرا، كما قال تعالى: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ}(الحج:٣٧). وقد قال النبيﷺ لسعدﷺ: (إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرتَ عليها حتى ما تجعله في في امرأتك) قال: فقلت أُخَلَّف بعد أصحابي؟ قال: (وإنك لن تُخلَّف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجةً ورفعةً)؛ فلم يمنع الأجر ما يُعلم عادةً من حبّ الرجل إطعام زوجته ما دامت نية القُربى حاضرة. وقريب من هذا ما رواه البخاري من حديث يزيد بن الأخنس أنه وضع في المسجد صدقة فأخذها ولده معن فتخاصما إلى رسول اللهﷺ فقال: (لك ما نويتَ يا يزيد ولك ما أخذتَ يا معن).

وتأمَّلْ سؤال الصحابة رضي الله عنهم النبيﷺ (أيأتي أحدنا شهوته ويكون له بها أجر)! وهذه لفتةٌ جليلةٌ إلى أنّ النيّة الصالحة ما ينبغي أن تغيب عن المسلم في كلّ أموره {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ}(القمر:٥٢،٥٣)؛ ومن هنا أجاب النبي ﷺ معاذاً لما سأله (يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك وهل يُكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.[١]

ومن أحسن الأدلة على أنّ العمل القليل ينفع ويضر بحسب نية صاحبه ما رواه مالك والترمذي عن بلال بن الحارث المزنيرضي الله عنه أنّ رسول اللهﷺ قال: (إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه) وأصله في البخاري عن أبي هريرة مختصراً، ونحوه حديث أبي هريرة في الصحيحين (إنّ العبد يتكلم بالكلمة ما يتبيّن فيها يزل بها إلى النار أبعد ممّا بين المشرق والمغرب) قال النووي: "ومعنى (يتبيّن) يفكّر أنّها خير أم لا"[٢]

[٤] قد لا يقدر المؤمن على أداء العمل ولكنّ نيّته منعقدة على ذلك الفعل. فيُكتب له أجره وإن لم يفعله ـ منّة من الله تعالى وكرما ـ لعلمه سبحانه بصدق نيّة العبد في القيام بالأمر. وقد قال جابررضي الله عنه: كنا مع النبيﷺ في غزاة فقال: (إنّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا

١ وهو من أحاديث الأربعين.
٢ رياض الصالحين. كتاب الأمور المنهي عنها. باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان ٥٢٠.

كانوا معكم حبسهم المرض) قال النووي: وفي رواية (إلا شركوكم في الأجر). وفي البخاري: (حبسهم العذر).

وما أروع حال البكّائين الذين لم يخرجوا من ديارهم ولم يلقوا عدوّهم ولم يركبوا ظهر فرس أو بعير ،ومع ذلك نالوا رضوان الله والأجر الوفير {الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ}(التوبة:٩٢) وما شأن عثمانﷺ ببعيد حيث غاب عن بيعة الرضوان ليخاطب أهل مكة لمكانته وشرفه بينهم؛ فبايع عنه النبيﷺ وقال: (هذه عن عثمان)!

المطلب الثالث: من علامات الإخلاص:

[١] أن لا يتعصب المرء لنفسه، وأن لا ينتصر ـ عند الزلل ـ لرأيه؛ كأنّ الحق حِكرٌ عليه، والصواب خاص به. فذلك من صفات الله تعالى (لبَّيْكَ وسَعْدَيك. والخير بين يديك. والشر ليس إليك). وقد حذّر النبيﷺ من إعجاب كلّ ذي رأي برأيه. وذكر أنّ النصيحة لا ينتفع بها من كانت هذه صفته. وقال الله جل جلاله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ}(البقرة:٢٠٦)، على حين مدح أولياءه بأنهم {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً}(الفرقان:٧٣). ومن هنا قال النبيﷺ: (أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقاً).[١]

ولا شكّ أن الإخلاص يقتضي البحث عن الحق والتزامه، ولو كان الحق في رأي المخالف كما قيل: (لَأَن أكونَ ذَنَبا في الحق خيرٌ لي من أن

---

١ قال النووي حديث صحيح رواه أبو داود بإسناد صحيح. والزعيم: الضامن.[رياض الصالحين باب حسن الخُلُق ص ٢٧٨].

أكون رأساً في الباطل). ورحم الله حماد بن زيد حيث قال:"إذا خالفني شعبة تبعته؛ لأنه كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة وأنا أرضى أن أسمعه مرة".[1] وما أحسنَ ما علّقه البخاري من قول عمّار بن ياسر ﷺ في باب إفشاء السلام من الإسلام (ثلاثٌ من جمعهنّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالَم، والإنفاق من الإقتار). ورحم الله الحاكم محمد بن عبد الله البَيِّع صاحب (المستدرك) فقد بعث إليه الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري كتابا جمع فيه الأوهام التي وقعت للحاكم في (كتاب المدخل)؛ ففرح بها الحاكم لأنّ صاحبه نبّهه إلى الصواب وعرّفه بالحق ـ و(الدين النصيحة) ـ فطفق الحاكم يُخبر بها الناس! وبعث إلى عبد الغني يشكره قال: فعلمت أنه رجل عاقل كما ذكر الذهبي في ترجمته من (سير أعلام النبلاء).

[٢] أن لا يقصد المرء الشهرة بين الناس، ولا يرجو استماعهم إليه واجتماعهم عليه ـ وإن كان ذلك من عاجل بشرى المؤمن إذا أخلص ـ ولكنه فتنةٌ وهلاكٌ لمن لم يرد به وجه الله لأنّ الله (أغنى الشريكين عن الشرك) ولا يقبل إلا ما كان لوجهه خالصاً؛ فلا يصيب المرء من تعبه ونصبه خيرا كما جاء في الصوم (رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش). ورحم الله أولئك الأخيار الذين كانوا {يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}(المؤمنون:٦١) ومع ذلك تجدهم حريصين على أن لا يعلم قرباتهم إلا ربّ العالمين. قال ابن قدامة المقدسي: "لم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفيّ يجتهدون في مخادعة النفس والناس عن أعمالهم الصالحة ويحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء

---

١ تذكرة الحفاظ للذهبي ١٩٤/١

فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم".[1] ومن هؤلاء الأبرار منصور بن المعتمر الذي"صام أربعين سنةً وقام ليلها، وكان يبكي الليلَ كلَّه، فإذا أصبح كحل عينيه وبرق شفتيه ودهن رأسه!"[2]

[٣] أن لا يحب الثناء، بل يكرهه ولا يرضى بسماع المدح بل يفرّ منه، كما فرّ أويس القرني رضي الله عنه لئلا يُعرَف. وما أكثرَ ما يجتمع حُبّ الثناء بالتقصير في الأعمال، كما قال تعالى: {وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ}(آل عمران:١٨٨).[3] ولله درّ القرطبي حيث قال في تفسير قول الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}(البقرة:١١-١٢) "قال أرباب المعاني: مَن أظهرَ الدَّعوى كُذِّبَ؛ ألا ترى أنَّ الله عز وجل يقول: (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ)، وهذا صحيح".[4]

ورحم الله العلامة ابن القيم حيث قال: "لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس"؛[5] فينبغي للمؤمن أن يراقب نفسه ويُصحِّحَ قصدَه لأنّ الرياء دقيق، وهو متلوِّن بأشكال الأعمال الصّالحة تدليسا وتلبيسا لا يظهر إلا بالمحاسبة والمراقبة. وما أحسنَ ما نبّه عليه العلامة ابن قدامة حيث قال: "هذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلا عن عامة العُبّاد وإنما يبتلى بها العلماء

---

١ مختصر منهاج القاصدين ص ٢٣٩

٢ تذكرة الحفاظ للذهبي – ترجمة منصور بن المعتمر

٣ قال السعدي رحمه الله: "جمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفسادٍ بل هو إصلاح؛ قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظمُ جنايةً ممن يعمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصيةٌ. فهذا أقربُ للسلامة، وأرجى لرجوعه" تيسير الكريم الرحمن ص ٤٣.

٤ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠٤/١.

٥ الفوائد ص ١٨٦.

والعُبّاد المشمّرون عن ساق الجدّ لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا أنفسهم جالدوها وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة والواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصا من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم. فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة؛ فاحتقرت فيها ترك المعاصي والشهوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات؛ لإدْراكها في الباطن لذة اللّذّات وشهوة الشهوات. فهو يظن أنه مُخلِصٌ لله عز وجل، وقد أُثبت في ديوان المنافقين. وهذه مكيدةٌ عظيمةٌ لا يسلم منها إلا المقرَّبون"[١].

[٤] أن يصبر على الأذى ويتحمّل في سبيل الله العناء؛ رجاء أن ينال القبول والرّضا، وقد قال الشافعي: سمعت محمد بن الحسن يقول: "لا يُفلح في هذا الشأن إلا من أَقْرَحَ البرُّ قلبه"[٢]وقال الذهبي: "لا يصبر على الخَلّ إلا دوده"، وقال ابن معين لمّا رفسه الحافظ أبو نُعيم الفضل بن دُكين حين امتحنه في قلب الأسانيد: "والله لهذه الرفسة أحبّ إليّ من كل شيء"[٣]، شعارهم في ذلك قول الشاطبي:

وقد قيل: كُنْ كالكلب يُقْصِيهِ أهلُهُ ولا يأتلي في نُصْحِهم متبذِّلا[٤]

وليت شعري هل يصبر أهل الدنيا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون يجرون من درس إلى درس ويحومون على الشيوخ. كما كان شأن البخاري حين أكل العشب في رحلته إلى شيخه آدم بن أبي إياس.[٥] وذكر

---

١ مختصر منهاج القاصدين ص ٢٢٩
٢ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ١/ ١٠٥.
٣ المرجع السابق ١٣٦/١.
٤ مقدمة حرز الأماني ووجه التهاني (في القراءات السبع المتواترة).
٥ راجع ترجمة البخاري في هدي الساري لابن حجر.

ابن أبي حاتم الرازي أنه كان مع صاحب له يطلبان العلم من شيخ إلى شيخ فاشتريا سمكة لم يجدا وقتا لشوائها. فأكلاها نيئة. وقال: لا يُستطاع العلم براحة الجسد.[1]

بل إنّ المرائي لا يصبر على أدنى أذىً يصيبه كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}(الحج:١١)، بل لا يرضى أن يتجاهله الناس، ولا أن يعاملوه كعامة المسلمين وقد عَدَّ ابن قدامة هذا من الرّياء الخفي فهو "إذا رأى الناس أحبَّ أن يبدؤوه بالسلام. وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة. ويوسعوا له المكان. فإن قصّر في ذلك مقصّر ثَقُل على قلبه، ووجد لذلك استبعادا في نفسه ليتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها"[2]. وأما العبد الصالح فلا يهمُّه رضي الخلق أم سخطوا إذا أدّى حق الله ورسوله. بل هو متيقِّن بأنّ السفهاء لا يرضون بالمعروف أصلاً، ولا يَرَوْنَ لصاحب الخير فضلا. فلا يبالي بهم بل ينشد مع الزَّبيدي[3]:

إذا رضيَتْ عنّي كِرامُ عشيرتي فلا يزال غَضْباناً عليَّ لئامها

[٥] أن يكون طاهر القلب من الهوى، وبريئا من حُظوظ النفس، حريصا على مصاحبة الصادقين والتعاون معهم في كلّ خير، ورحم الله ابن القيم حيث قال: "الأفضل في كلّ وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل

---

١ وقد روى مسلم في صحيحه هذه الكلمة عن يحيى بن أبي كثير في أبواب مواقيت الصلاة.
٢ مختصر منهاج القاصدين ص ٢٣٩.
٣ في مقدمة تاج العروس بشرح جواهر القاموس.

التعبُّد المُطلق، والأصناف قبلَهم أهلُ التعبّد المقيَّد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبّد المطلق ليس له غرض في تعبُّد بعينه يؤثره على غيره. بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمَدَارُ تعبُّدِه عليها، فهو لا يزال متنقّلا في منازل العبودية، كلما رُفعت له منزلة عمِل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دَأْبُه في السّير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدّقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملِكْه الرّسوم، ولم تقيّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذّتها وراحتها من العبادات بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه فهذا هو المتحقّق بـ(إياك نعبد وإياك نستعين) حقّا القائم بها صدقاً".

[٦] أن يتخلّق بغنى النفس وصفاء السّريرة ومحبة الخير للمسلمين والبُعد عن الحسد والبغض، فهذه المعاملات عنوان السلامة من الهوى وأمراض القلوب وعِلل النفوس؛ ومن هنا جاء الثناء العظيم على الذين دعوا {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا}(الحشر:١٠). وقد ذكر أبو منصور الثعالبي في (خاص الخاص) "أنّ علي بن محمد الفياض كتب إلى ابن أبي البغل وقد وُلِّي على الأهواز وصُرِف ابنُ أبي البغل به وهو أحسن وأبلغ وأظرف وأكرم ما كتب صارف إلى مصروفه: قد قُلِدْتُ العمل بناحيتك فهنَّاك الله بتجدُّد ولايتك. فأجابه ابن أبي البغل بما لاُيدرى أيهما أبلغ وأحسن: ما انتقلتْ

عني نعمةٌ صارت إليك ولا غابت عني منزلةٌ طلعتْ عليك وإني لأجد صرفي بك ولايةً ثانيةً وصلةً من الوزير وافية؛ لما أرجوه بمكانك من العافية وحسن العاقبة".[1]

المبحث الثاني: درس (الإسلام والإيمان): ويتضمن شرح الحديث الثاني والثالث:

الحديث الثاني: عن عمر رضي الله عنه أيضاً قال: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى[2] عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه. وقال: يا محمد أخبرْني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقتَ؛ قال: فعجبنا له يسأله ويصدّقه! قال: فأخبرْني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه. قال: صدقتَ. قال: فأخبرْني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل. قال: فأخبرني عن أمَارَاتها؟ قال: أن تلد الأمةُ ربَّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة[3] رِعاءَ[4] الشاءِ يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق فلبث[5] مليّا ثم قال

---

١ خاص الخاص للثعالبي ص ١٠

٢ لا يُرى: هكذا بضم الياء المثناة من تحت وذكر الإمام النووي رواية أخرى نَرى ـ بالنون المفتوحة ـ وعزاها إلى مسند أبي يعلى الموصلى وقال: "كلاهما صحيح" [شرح النووي على مسلم ١٥٧/١].

٣ العالة: قال النووي هم الفقراء. والعائل الفقير. والعَيْلة الفقر [شرح النووي على مسلم ٢٥٤/١] وقد قال الله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء}(التوبة:٢٨).

٤ الرِّعاء: بكسر الراء وبالمدّ ويقال فيهم: رُعاة بضم الراء وزيادة الهاء بلا مدّ [شرح النووي ١٥٩/١].

٥ فلبث: أو فلبثت: روايتان في مسلم قال النووي: "وكلاهما صحيح" [١٦٠/١].

لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل؛ أتاكم يعلّمكم دينكم) رواه مسلم.[1]

الحديث الثالث: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[2] قال: سمعت رسول الله ﷺيقول:(بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان). رواه البخاري ومسلم.

---

١ لطيفة: يلاحظ ها هنا دقة النووي في الإحالة: فقد عزا حديث جبريل عليه السلام إلى مسلم، مع علمه بأنّ أصل الحديث متفق عليه؛ إذ جاء في البخاري سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان. وترجم في كتاب الإيمان (باب سؤال جبريل النبيﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبيﷺ ذلك). ولكنّ النووي رحمه الله باقتصاره على عزو الحديث إلى مسلم، ينبّهنا إلى أنّ الذي في البخاري مغايرٌ لهذا، فهذا من رواية عمر. وذاك من رواية أبي هريرة. وهذا فيه التصريح بالقدر، وذاك فيه بدلا عن هذا (وبلقائه). وهذا يبدأ بالترتيب ولعلّ النووي يرتضيه مثل الطيبي لما فيه من الترقّي من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان. والله أعلم.

٢ عبد الله بن عمر بن الخطاب "أحد الأعلام في العلم والعمل. شهد الخندق وهو من أهل بيعة الرضوان، وممّن كان يصلح للخلافة" تذكرة الحفاظ ٣٧/١. وشهد له النبيﷺ بالصلاح كما جاء في رواية شقيقته حفصة رضي الله عنهما في صحيح البخاري في قيام الليل والفضائل والتعبير. وروى المزي عن ابن مسعود قوله "إنّ من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبدَ الله بن عمر" وعن جابر قوله "ما منّا أحدٌ أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها إلا عبد الله بن عمر" وعن سعيد بن المسيَّب قوله: "مات ابن عمر يوم مات، وما أحدٌ أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله" تهذيب الكمال ٣٣٩/١٥. وكانﷺ آية في التمسك بسنة النبيﷺ وتتبُّع الآثار المباركة، كما قال مالك "قال لي ابن شهاب: لا تعدلنّ برأي ابن عمر؛ فإنه أقام ستين سنّة بعد رسول اللهﷺ فلم يَخْفَ عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه" تذكرة الحفاظ ٣٩/١. وقال يحيى بن يحيى التميمي: قلتُ لمالك: أليسَ قلتَ: سمعتُ المشايخ يقولون: من أخذ بقول ابن عمر لم يَدَعْ من الاستقصاء شيئا؟ قال: نعم. المرجع السابق. وذكر نافع أن عبد الله بن عمر تتبّع أمر رسول اللهﷺ وآثاره وأفعاله حتى كأنّه خِيف على عقله" المرجع السابق. وقد كانﷺ صادقا مع الله، صادعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، كما روى الذهبي "أنّ الحجاج خطب فقال: إنّ ابن الزبير بدّل كلام الله. فقال ابن عمر: كذبتَ. لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يبدّل كلام الله. ولا أنت قال: إنك شيخٌ قد خرفتَ. اقعد. قال: أما إنك لو عدتَ عُدْتُ" المرجع نفسه. وروى أنّ ابن عمر "قام والحجاج يخطب فقال: عدوّ الله، استحلّ حرم الله، وخرب بيت الله، وقتل أولياء الله" فقال الحجاج: من هذا؟ فقيل: عبد الله بن عمر. فقال: اسكت يا شيخاً قد خرف، فلمّا صدر الحجاج أمر بعض الأعوان فأخذ حربة مسمومة فضرب بها رجل عبد الله بن عمر فمرض ومات منها، ودخل عليه الحجاج عائدا. فسلّم ولم يردّ عليه وكلّمه فلم يجبه. أخرجه البخاري مختصرا" المرجع نفسه. وقد توفّي رحمه الله تعالى سنة أربع وسبعين. قال رَجَاء بن حَيْوَة: "أتانا نعي ابن عمر ونحن في مجلس ابن مُحَيْرِيز.فقال ابن مُحَيْرِيز: والله إن كنتُ لأعدُّ بقاء ابن عمر أماناً لأهل الأرض" تهذيب الكمال ٣٤٠/١٥ ـ ٣٤١. ورحم الله الحافظ الذهبي ما ألطف ما ذكره عند ترجمته في (تذكرة الحفاظ) فقال: "ما ذكر ابن عمر رسول الله ﷺ قطّ إلا بكى! وما مرّ على ربعهم إلا غمض عينيه!" وما أحسن قول سفيان الثوري: "يُقتدَى بعمر في الجماعة، وبابنه في الفُرقة" التذكرة ٣٨/١.

المطلب الأول: فقه الحديثين:[1]

[١] **صفة النبيﷺ في مجلسه**: فقد جاء في مسلم من حديث عمرﷺ (بينما نحن عند رسول اللهﷺ) وجاء في البخاري من حديث أبي هريرةﷺ (كان النبيﷺ يوما بارزاً للناس). والمراد هنا التوفيق بين كون النبيﷺ لا يتميّز عن أصحابه، وبين معرفة هذا الغريب له بغضّ النظر عمّا سيُكشف في آخر الحديث من أنّ السائل جبريل عليه السلام، قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري في كتاب الإيمان (كان النبيﷺ بارزا يوما للناس) "أي ظاهراً لهم غير محتجب عنهم ولا ملتبس بغيره. والبروز الظهور. وقد وقع في رواية أبي فروة[2] التي أشرنا إليها بيان ذلك؛ فإنّ أوله (كان رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو. فطلبنا إليه أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه. قال: فبنينا له دكّانا من طين يجلس عليه)؛ واستنبط منه القرطبي استحباب جلوس العالم بمكان يختص به ويكون مرتفعا إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم ونحوه".[3]

[٢] **صفة السائل**: وقد جاء وصف عمرﷺ دقيقا ـ وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون ذا ملاحظةٍ وفطنةٍ وانتباهِ ذهنٍ وحضورِ فكرةٍ بحيث يصير ذلك له ملكة ـ ففي كتاب التفسير من البخاري (إذ أتاه رجل يمشي) ولأبي فروة: (فإنّا لجلوس عنده إذ أقبل رجل أحسن الناس وجها وأطيب

---

١ باعتبار الحديث الثاني مذكورا في مطلع الحديث الأول: فهو مطابق للقسم الأول منه؛ وبذلك ستتم دراسته مع حديث جبريل عليه السلام. ويدلّك على أنّ مورد حديث ابن عمر وأبيه رضي الله عنهما واحدٌ استهلالُ ابن تيمية رحمه الله كتاب الإيمان بذينك الحديثين، فقال: "اعلم أنّ الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله" كتاب الإيمان ص ٧. وذكر أنّ "اسم الإيمان تارةً يذكر مفردا غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما. وتارة يذكر مقرونا إما بالإسلام كقوله في حديث جبريل (ما الإسلام؟ ما الإيمان؟) وقوله تعالى (إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...) كتاب الإيمان ص ١٤.

٢ ذكر الحافظ رحمه الله أنها عند أبي داود والنسائي. وقد أحال الحديث على مَظانّه بما لا مزيد عليه رحمه رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء عن خدمة حديث رسول اللهﷺ. وصدق من أنشد في ابن حجر:

إذا قالت حزام فصدقوها فإنّ القول ما قالت حزام!

٣ فتح الباري ١٥٩/١

الناس ريحا؛ كأنّ ثيابه لم يمسها دنس) وفي مسلم (طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر) وفي رواية ابن حبان (سواد اللحية)[1] (لا يُرى عليه أثر السفر). وهذه أوصافٌ لهيئة الرجل. ثم ثنّىﷺ بوصفه بأنه ليس من أهل البلد (لا يعرفه منا أحد) وفي رواية لسليمان التيمي (ليس عليه سحناء السفر؛ وليس من البلد) قال ابن حجر: "فإن قيل: كيف عرف عمر أنه لم يعرفه منهم أحد؟ أُجِيب بأنه يحتمل أن يكون استند في ذلك إلى ظنّه، أو إلى صريح قول الحاضرين. قلت: وهذا الثاني أولى، فقد جاء كذلك في رواية عثمان بن غياث، فإنَّ فيها: (فنظر القوم بعضهم إلى بعض؛ فقالوا: ما نعرف هذا)".[2]

ولم يفت عمر أن يصف لنا طريقة جلوسه، فقد (جلس إلى النبيﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه). وهذا وصفٌ لحركاته وسَكَناتِه. وقد جرى خلاف بين شُرّاح الحديث في مرجع الضمير في (فخذيه)، فقال النووي: "معناه أنّ الرّجل الدّاخل وضع كفّيه على فخذَي نفسه، وجلس على هيئة المتعلّم".[3] والصواب مع مَن رَدَّ الضميرَ إلى النبيﷺ كما احتج على ذلك ابن حجر برواية سليمان التيمي في صحيح ابن خزيمة: (فتخطَّى حتى برك بين يدي النبيﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة ثم وضع يده على ركبتي النبيﷺ). وكذا في حديث ابن عباس وأبي عامر الأشعري: (ثم وضع يديه على ركبتي النبيﷺ). فأفادت هذه الرواية أنّ الضمير في قوله (على فخذيه) يعود على النبيﷺ، وبه جزم البغوي وإسماعيل التيمي لهذه الرواية. ورجّحه الطيبي بحثاً؛ لأنّه نسق

---

١ المرجع السابق
٢ المرجع نفسه.
٣ شرح النووي على مسلم ١٥٧/١

الكلام خلافا لما جزم به النووي ووافقه التوربشتي؛ لأنه حمله على أنه جلس كهيئة المتعلم بين يدي من تعلّم منه. وهذا وإن كان ظاهرا من السياق، ولكن وضعه يديه على فخذ النبيﷺ صنيعُ منبِّهٍ للإصغاء إليه".[١]

[٣] **صفة الحاضرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم**: وهي صفة استغراب وتعجّب من هذا الرجل الغريب الذي لا يُرى عليه أثر السفر! والمألوف أنّ الغريب يأتي من السفر، وللسفر وعثاء وحال المسافر عادةً (أشعث أغبر). وزاد في استغرابهم أنه يسأل النبيﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم يقول: صدقت؛ فذلك قول عمر: (فعجبنا له يسأله ويصدقه). قال النووي: "سبب تعجّبهم أنّ هذا خلاف عادة السائل الجاهل، إنما هذا كلام خبير بالمسؤول عنه. ولم يكن في ذلك الوقت مَن يعلم هذا غير النبيﷺ"[٢] وقد أفاد الحافظ ابن حجر بذكر روايات عدّة في بيان هذا الاستغراب منها رواية أبي فروة (فلما سمعنا قول الرجل صدقتَ أنكرناه) ورواية مطر الورّاق[٣] (انظروا إليه كيف يسأله وانظروا إليه كيف يصدّقه!) وفي رواية أنس (انظروا وهو يسأله وهو يصدّقه كأنه أعلم منه)[٤] وفي رواية سليمان بن بُرَيْدة (قال القوم: ما رأينا رجلا مثل هذا كأنه يعلِّم رسول اللهﷺ يقول له: صدقتَ صدقتَ)[٥] قال القرطبي: إنما تعجّبوا من ذلك؛ لأن ما جاء به النبيﷺ لا يُعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممَّن عُرف بلقاء النبيﷺ ولا بالسماع منه، ثم هو يسأل سؤال عارف بما يسأل عنه؛ لأنه يخبره بأنه صادق فيه. فتعجّبوا من ذلك تعجُّب المستبعِد له".[٦]

---

١ فتح الباري ١٦٠/١
٢ شرح النووي ١٥٧/١
٣ ذكر الحافظ أنها في صحيح أبي عوانة.
٤ عند البزار، والبخاري في خلق أفعال العباد.
٥ عند أحمد.
٦ فتح الباري ١٦٥/١

المطلب الثاني: العلاقة بين الإسلام والإيمان:

وهذا بابٌ اتسع فيه الخلاف بين العلماء في التسوية بين اللفظين؛ بناءً على أدلةٍ كثيرةٍ، منها قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ}(الذاريات:٣٥-٣٦) وقوله عز وجل: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}(آل عمران:٨٥) وقول النبيﷺ: (هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم)؛ قال البخاري: "فجعل ذلك كله دينا. وما بيّن النبيﷺ لوفد عبد القيس من الإيمان"؛ حيث فسّر به الإسلام هنا.[1] وهذا اختيار المزني أيضاً من أصحاب الشافعي. ولا شكّ أنّ التفريق في هذا الحديث ظاهرٌ بين لفظ الإسلام والإيمان كما ذكره كثير من الشُرَّاح، قال ابن رجب: "فأما الإسلام فقد فسّره النبيﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة".[2] ويُؤيِّده قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}(الحجرات:١٤).

فكان لا بدّ من التوفيق بين هذه الأدلة المتعارضة. وهذا ما صنعه الخطابي رحمه الله حيث قال:"الصحيح من ذلك أن يقيَّد الكلام في هذا ولا يُطلق؛ وذلك أنّ المسلم قد يكون مؤمنا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنا في بعضها. والمؤمن مسلمٌ في جميع الأحوال؛ فكل مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنا. وإذا حملتَ الأمر على هذا استقام لك تأويلُ الآياتِ، واعتدل القولُ فيها، ولم يختلف شيء منها. وأصل الإيمان التصديق، وأصلُ

---

١ فتح الباري ١/١٥٧

٢ جامع العلوم والحكم ص ٣٦ ـ ٣٨

الإسلامِ الاستسلامُ والانقياد؛ فقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غيرَ مُنقادٍ في الباطن، وقد يكون صادقاً في الباطن غيرَ مُنقادٍ في الظاهر".[1]

وقال الحسين بن مسعود البغوي في حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام "جعل النبيﷺ الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد؛ وليس ذلك لأنّ الأعمال ليست من الإيمان[2]، والتصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد، وجِماعُها الدين؛ ولذلك قالﷺ: (ذلك جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم). والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعا؛ فأخبر سبحانه أنّ الدين الذي رضيه وقبله من عباده هو الإسلام، ولا يكون الدين في محلّ القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل".[3]

وقال أبو عمرو بن الصلاح: "هذا بيانٌ لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر. وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين؛ وإنما أضاف إليها الصلاة والزكاة والحج والصوم؛ لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها. وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله. ثم إنَّ اسم الإيمان يتناول ما فُسِّر به الإسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقويات ومتممات

---

١ نقله النووي وذكره ابن رجب وابن حجر مختصرا.

٢ راجع في مسألة دخول العمل في مسمّى الإيمان كتاب [البرهان على أنّ تارك العمل اختيارا فاقد لأصل الإيمان وأنّ الكفر كما يكون بالقلب يكون بالعمل واللسان] للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق. وكتاب [التوسط والاقتصاد في أنّ الكفر يكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد] لعلوي بن عبد القادر السقاف.وقد اعتنى سلف هذه الأمة بهذه المباحث العظيمة التي ينبني إسلام العبد عليها ويتحقق إيمانه بالإتيان بها؛ ومن هنا رموا بالبدعة من أخطأ فيها من المرجئة والقدرية والخوارج والجبرية. ورحم الله ابن رجب حيث قال: "هذه المسائل – أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق ـ مسائل عظيمة جدا؛ فإنّ الله عزّ وجلّ علّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار..."جامع العلوم والحكم ص ٤٣.

٣ شرح النووي ١٤٥/١

وحافظات له؛ ولهذا فسّرﷺ الإيمان في حديثِ وفدِ عبدِ القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن على من ارتكب كبيرة أو بدَّلَ فريضةً لأنَّ اسم الشيء مُطلَقاً يقع على الكامل منه، ولا يُستعمل في الناقص ظاهرا إلا بقيد؛ ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه من قولهﷺ: (لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن). واسم الإسلام أيضا يتناول ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن، ويتناول أصل الطاعات. فإنَّ ذلك كله استسلام ـ قال ـ فخرج ممّا ذكرناه وحققناه: أنّ الإيمانَ والإسلامَ يجتمعان ويفترقان، وإنّ كل مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنا).[1]

وقال ابن رجب: "وجه الجمع بين هذه النصوص وبين سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان وتفريق النبيﷺ بينهما، وإدخاله الأعمال في مسمّى الإسلام دون مسمّى الإيمان: فإنه يتّضح بتقريرِ أصلٍ، وهو أنّ من الأسماء ما يكون شاملا لمسمّياتٍ متعدّدةٍ عند إفراده وإطلاقه. فإذا قُرن ذلك الاسمُ بغيرِه صار دالًّا على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دالًّا على باقيها. وهذا كاسم الفقير والمسكين. فإذا أُفرِد أحدهما دخل فيه كلُّ محتاج، فإذا قُرن أحدُهما بالآخر دلَّ أحدُ الاسمين على بعضِ أنواعِ ذوي الحاجات، والآخر على باقيها. فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أُفرِد أحدُهما دخلَ فيه الآخرُ، ودلَّ بانفرادِه على ما يدلُّ عليه الآخرُ بانفرادِه، فإذا قُرِنَ بينهما دلَّ أحدُهما على بعضِ ما يدلُّ عليه الآخر بانفراده، ودلَّ الآخر على الباقي، وقد صَرَّح بهذا المعنى جماعة من الأئمة. قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته لأهل الجبل: "قال كثير من أهل السنة والجماعة: إنَّ الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله.

---

١ نقله النووي في شرحه على مسلم ١ / ١٤٧ ـ ١٤٨

إذا ذُكر كل اسم على حِدَتِه مضموماً إلى الآخر، فقيل: (المؤمنون والمسلمون) جميعا مُفرَدَين أُريد بأحدِهما معنًى لم يُرَدْ به الآخر، وإذا ذُكِرَ أحَدُ الاسمين شملَ الكلَّ وعَمَّهم"، وأشار إلى كلام الخطابي في معالم السنن.[1]

وقال ابن رجب في موضع آخر: "قال المحققون من العلماء (كل مؤمن مسلم)؛ فإنّ من حقق الإيمان ورسخ في قلبه، قام بأعمال الإسلام كما قال رسول اللهﷺ: (ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)؛ فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام، (وليس كل مسلم مؤمنا)؛ فإنه قد يكون الإيمان ضعيفاً؛ فلا يتحقق القلب به تحققاً تاماً، مع عملِ جوارحه بأعمال الإسلام، فيكون مسلما. وليس بمؤمن الإيمانَ التام كما قال تعالى: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآية؛ فلم يكونوا منافقين بالكلية ـ على أصح التفسيرين، وهو قول ابن عباس وغيره – بل كان إيمانهم ضعيفا، ويدلُّ عليه قوله تعالى: {وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً}(الحجرات:١٤) يعني: لا ينقصكم من أجورها؛ فدلَّ على أنَّ معهم من الإيمان ما يقبل به أعمالهم. وكذلك قول النبيﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له: (لَمْ تُعْطِ فلانا وهو مؤمن؟ فقال النبيﷺ: أو مسلم)[2] يشير إلى أنه لم يُحقِّقْ مقامَ الإيمان، وإنما هو مقامُ الإسلام الظاهر. ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن؛ لزم منه ضعفُ أعمالِ الجوارح الظاهرة أيضاً".[3]

---

١ جامع العلوم والحكم ص ٤٥. وهو كلامٌ نفيسٌ.

٢ رواه البخاري ومسلم، وترجم البخاري ترجمة نفيسة في كتاب الإيمان (باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل لقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره (إنّ الدين عند الله الإسلام).

٣ جامع العلوم والحكم ص ٤١ ـ ٤٢

ولكن الفضل في هذا التحقيق النافع يعود إلى أبي سليمان الخطابي رحمه الله فإنه سبق بعقله البارع إلى هذا الفهم الواسع ورحم الله القائل:

ولكن بَكَتْ قبلي فهَيَّجَ لي البُكَا بُكاها فقلتُ: الفضلُ للمتقدّمِ[1]

المطلب الثالث: من علامات الساعة اختلال القيم وتوسيد الأمور إلى غير أهلها:

وقد أشير إلى ذلك بأمارتين في الحديث: أولاهما (أن تلد الأمّة ربتها)، وفي رواية: (ربها) أي مالكها وسيّدها. والمراد من ذلك: أنْ يكثر العقوق في الأولاد؛ فيعامل الولد أمَّه معاملةَ السيّدِ أمَتَه من الإهانة والسبِّ والضربِ والاستخدامِ؛ فأطلق عليه (ربها) مجازاً لذلك، والمراد بالربّ المربّي فيكون حقيقة، قال ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر ثلاثة أوجه غير هذا: "وهذا أوْجَهُ الأوْجُهِ عندي لعمومه، ولأنَّ المقام يدلُّ على حالةٍ تكون ـ مع كونها تدلُّ على فساد الأحوال ـ مُستغرَبة. ومحصّلة الإشارة إلى أنّ الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المُربَّى مُربِّياً والسافل عالياً! وهو مُناسِبٌ لقولِه في العلامة الأخرى: (أن تصير الحفاة ملوك الأرض)".[2]

والأمارة الأخرى: (أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)، وقد "زاد الإسماعيلي في روايته (الصّم البُكم) وقيل لهم ذلك؛ مُبالغةً في وصفِهم بالجهل، أي لم يستعملوا أسماعهم ولا أبصارهم في شيءٍ من أمرِ دينِهم وإن كانت حواسُّهم سليمة".[3] وقال ابن رجب: "مضمونُ ما ذُكِر من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أنّ

---

١ وصدق ـ واللهِ ـ الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة حيث قال: ما ترك لنا الأوائل شيئا نفتخر به!

٢ منها ما يحدث عند سبي ذراري المشركين ـ في الفتوحات ـ من استيلاد الجواري حتى يكون ولد الجارية بمنزلة ربّها لأنه ولد سيّدها، ومنها بيع أمهات الأولاد فيتداول الملّاك المستولَدة حتى يشتريها ولدها ولا يشعر بذلك، ومنها أن تلد الأمة حرّا من غير سيّدها بوطء شبهة أو رقيقا بنكاح أو زنا ثم تدور في الأيدي حتى يشتريها ابنها أو ابنتها.[راجع تفصيل ذلك في فتح الباري ١٦٧/١]

٣ فتح الباري ١٦٨/١

الأمور تُوَسَّد إلى غيرِ أهلِها كما قال النبيﷺ: (إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهلِه فانتظر الساعة)؛ فإنه إذا صار الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء ـ وهم أهلُ الجهلِ والجفاءِ ـ رؤوسَ الناسِ وأصحابَ الثروةِ والأموالِ حتى يتطاولوا في البنيان؛ فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا".[1]

ورحم الله الإمامَ القرطبي؛ فكأنما تكلَّم بلسانِ أهلِ عصرِنا حيث قال: "المقصود الإخبارُ عن تبدُّلِ الحال؛ بأن يستولي أهلُ البادية على الأمر، ويتملكوا البلاد بالقهر؛ فتكثر أموالهم وتنصرف همُمهم إلى تشييد البنيان، والتفاخر به. وقد شاهَدْنا ذلك في هذه الأزمان".[2]

المطلب الرابع: المعاني التربوية:

[١] ينبغي على المتعلّم التخلق بحسن الأدب في الإقبال على شيخه: إصغاءً وانتباهاً، وما يتبع ذلك من خفض الجناح له تواضعا وإجلالا، وإظهار التعظيم له في المخاطبة والنداء[3] وفي كل معاملةٍ، كما كان حماد بن زيد يقول: "حدّثنا الضخم عن الضّخام، شعبة الخير أبو بسطام"؛[4] فإنّ فضل الشيخ على الطالب كفضل الوالد. وبركة الانتفاع به مَنوطةٌ ببِرِّه وإكرامِه وقضاءِ حوائجِه. وفي الصحيح صورٌ من ثمار أدب طالب العلم مع العالم كما ترى ذلك في دعاء النبيﷺ لابن عباس رضي الله عنهما

---

١ جامع العلوم والحكم ص ٥٧

٢ نقله الحافظ في الفتح ١٦٩/١

٣ لا يُقال: إنّ ظاهر الحديث على خلاف ذلك؛ إذ جاء الخطاب بـ(يا محمد). فقد ذكر القرطبي وابن حجر أنّ هذا من باب التعمية على الحاضرين حتى يقوّي عندهم أنه من الأعراب. وقد جاء في كتاب التفسير من البخاري (يا رسول الله ما الإيمان؟) وذكر ابن حجر أنّ السائل بدأ بالسلام كما جاء في رواية أبي عروة (السلام عليك يا محمد) وفي رواية عطاء عن ابن عمر (السلام عليك يا رسول الله) وفي رواية مطر الوراق (يا رسول الله أَدْنو منك؟ قال:ادْنُ). [فتح الباري ١/ ١٦٠].

٤ تذكرة الحفاظ للذهبي ١٩٤/١

بالفقه في الدين ومعرفة التأويل، ولأبي هريرةﷺ بالحفظ فلا ينسى، ولأنسﷺ بطول العمر وكثرة البنين وسعة الرزق.

ولا ريب أنّ ترجمة البخاري في كتاب الدعوات (دعوة النبيﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله) خير دليل على هذا المعنى التربوي. وقد روى الخطيب في [الجامع] عن سعيد بن جبير قوله "كان ابن عباس يحدّثني بحديث. فلو يأذن لي أن أقبّل رأسه لقبّلته"[1] وعن ثابت البُناني: "قلت لأنس: أعطني عينيك اللتين رأيت بهما رسول اللهﷺ حتى أقبّلهما".[2] وعن البخاري: "ما رأيتُ أحدا أوقر للمحدّثين من يحيى بن معين".[3] وعن المغيرة "كنا نهاب إبراهيم كما يُهاب الأمير".[4]

[٢] أدب العالم في التواضع لطلاب العلم والصَّفْح عما يبدو من جفاء بعضهم؛ فإنّ من لم يأخذ عن أهل العلم لا يكاد ينجو من زَعارة في الطّبع وجسارة في اللفظ وجَفوة في المعاملة ورغبة في المجادلة وولوع بالمناظرة؛ لأنّ الجهل يغلب على نفسه فيمنعها من الرّفق ويسارع بها إلى الغلوّ. وهذه صفة المنبتّ الذي (لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)، وصفة الخوارج الذين يحقر المؤمنون أعمالهم إلى أعمالهم؛ فإنهم (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة).

وهذا بخلاف من عَرَف جهلَه بين العلماء واحتقر عملَه حين اطّلع على حالِ النبلاء، وأدرك هوانَ أمرِه إذا شاهد رسوخ الفضلاء في العلم والعمل؛ فتكسبه هذه المعارف ليناً في الجانب ورقّة في الحاشية ولطفاً في

---

١ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٩٠/١
٢ المرجع السابق ١٩١/١.
٣ المرجع نفسه ١٨٣/١.
٤ المرجع نفسه ١٨٤/١.

العبارة؛ حتى يصير موطأ الأكناف. فإنّ الطالب لا يستفيد من علمه حتى يكتسب هذه الخصال. وذلك من أسرار (ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع عن شيء إلا شانه). وقد ربط النبي ﷺبين الإيمان والحكمة ولين القلب ورقة الأفئدة، فقالﷺ: (أتاكم أهل اليمن هم ألْيَن الناس قلوباً وأرقهم أفئدةً. الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية). وقد كان من شأن العلماء الرّبانييّن أنهم يتألّفون الناس على أعمال الخير؛ فيُحسنون إليهم ليعتادوا على البِرّ ويُقبِلوا على العلم، كما ذكر الخطيب البغدادي عن الزهري أنه قال: "كان عروة[1] يتألّف الناس على حديثه".[2] وقد أفاد الحافظ ابن حجر[3] أنّ في حديث جبريل عليه السلام "إشارة لما ينبغي للمسؤول من التواضع والصَّفْح عمّا يبدو من جَفاء السائل".[4]

المبحث الثالث: درس (القدر والتوكُّل):

ويتضمّن شرح الحديث الرابع، والحديث التاسع عشر.

---

١ عروة بن الزبير بن العوام. تفقه بخالته عائشة وكان عالما حافظا ثبتا. قال الزهري: رأيته بحرا لا ينزف. مات سنة أربع وتسعين [تذكرة الحفاظ ٦٢/١].

٢ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣٤٠/١

٣ فتح الباري ١٦٠/١

٤ ولا بد من الاعتذار عن الإطالة ههنا؛ فإنما كان ذلك لكثرة فوائده؛ ورحم الله عياضاً وابنَ حجر فقد طوّلا في هذا الموضع واعتذرا رضي الله عنهما. قال عياض:" اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً ومن أعمال الجوارح ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال؛ حتى إن علوم الشريعة كلّها راجعة إليه، ومتشعبة منه ". قال ابن حجر:" ولهذا أشبعتُ القول في الكلام عليه، مع أنّ الذي ذكرته - وإن كان كثيرا لكنه بالنسبة لما يتضمنه - قليل"!

الحديث الرابع: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعودﷺ[1] قال: حدثنا رسول اللهﷺ وهو الصادق المصدوق (إنّ أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمّه أربعين يوما نطفة. ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها). رواه البخاري ومسلم.

---

١ هو عبد الله بن أمّ عبد: أول من ترجم له الذهبي في (تذكرة الحفاظ) بعد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، فقال: "صاحب رسول اللهﷺ وخادمه وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريّين، ومن نبلاء الفقهاء والمقرئين" تذكرة الحفاظ ١٣/١. وقال المزي: "أسلم بمكة قديما وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول اللهﷺ، وهو صاحب نعل رسول اللهﷺ كان يُلبسها إياه إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه وكان كثير الولوج على رسول اللهﷺ".تهذيب الكمال ١٢٢/١٦ – ١٢٣. وقد روى البخاري ومسلم في فضائل ابن مسعود قول أبي موسى ﷺ(قدمت أنا وأخي من اليمن فكنا حينا وما نُرى ابن مسعود وأمّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺمن كثرة دخولهم ولزومهم له). وروى مسلم عن أبي الأحوص قال:(شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين مات ابن مسعود. فقال أحدهما لصاحبه: أتُراه ترك بعده مثله؟ فقال: إن قلت ذاك، إن كان ليُؤذَن له إذا حُجِبنا ويشهد إذا غِبْنا). وأخرج البخاري ثناء أبي الدرداء على ابن مسعود لما لقي تلميذه علقمة فسأله (ممن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: أو ليس عندكم ابنُ أمّ عبد صاحب النّعلين والوساد والمِطهرة؟) وروى البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد قال:(سألنا حذيفة عن رجل قريب السَّمت والهدي من النبي ﷺحتى نأخذ عنه. فقال: ما أعرف أحدا أقرب سمتا وهديا ودلّاً من ابن أمّ عبد). وروى الذهبي في التذكرة كتاب عمر لأهل الكوفة (إني قد بعثتُ إليكم عمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلّما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب محمدﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما واسمعوا. وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي". تذكرة الحفاظ ٤١/١. توفى بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين تهذيب الكمال (١٢٦/١٦).

الحديث التاسع عشر: عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1] قال: كنت خلف النبيﷺ يوما فقال: يا غلام إني أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجفت الصحف). رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وفي غير الترمذي (احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسرا).

---

١ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: هو ابن عم رسول اللهﷺ. وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين. وتوفى رسول اللهﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو خمس عشرة سنة. قال المزي: "كان يُقال له: الحَبْر والبَحْر لكثرة علمه؛ دعا له النبيﷺ بالحكمة مرتين، وقال عبد الله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس". (تهذيب الكمال ١٥٥/١٦). وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: إنّ النبيﷺ دخل الخلاء فوضعتُ له وَضوءاً. (قال: مَن وضع هذا؟ فأُخبِر. فقال: اللهم فقِّهه في الدين). وقد كانﷺ من أعلم الصحابة بتفسير القرآن؛ ببركة دعاء النبيﷺ له (اللهم علّمه الكتاب) كما في البخاري.قال ابن حجر: "وقد كان عمر يقدّمه مع الأشياخ وهو شاب" فتح الباري ٤٧١/٧.كأنه يشير إلى قصّته المشهورة في شأن سورة النّصر رضي الله عنهم جميعا.وهو من رُواة الحديث المكثرين. مات سنة ثمان وستين رحمه الله تعالى وصلّى عليه محمد بن الحنفية وقال:"اليوم مات ربّانيّ هذه الأمة". تهذيب الكمال ١٦٢/١٥ وتذكرة الحفاظ ٤١/١.

المطلب الأول: فقه الحديثين:

[١] ورد في حديث ابن مسعودﷺ ما يدلُّ على أنَّ الإنسان "يتقلب في مائة وعشرين يوما ثلاثة أطوار، في كل أربعين يوما منها يكون في طور: فيكون في الأربعين الأولى نطفة، ثم في الأربعين الثانية علقة (والعلقة قطعة من الدم)، ثم في الأربعين الثالثة مضغة (والمضغة قطعة من لحم)، ثم بعد المائة وعشرين يوما ينفخ فيه الملك الرّوح. ويكتب له هذه الأربع كلمات".[١]

[٢] جاء في كتاب الله ذكرُ إنشاء الإنسان إجمالا، مثل قول الله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ}(الإنسان:٢)، وقوله سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}(آل عمران:٦) وقوله عز وجل: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}(التغابن:٣) وقوله جل جلاله على لسان نوح عليه السلام: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً}(نوح:١٣-١٤) كما جاء ذكر الأطوار تفصيلا في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً}(الحج:٥) ومثل ذلك قول الله سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}(المؤمنون:١٢-١٤).

[٣] بيّن لنا حديث الصادق المصدوق منهج السنة في الربط بين الأولى والآخرة والبداية والنهاية والمنشأ والمصير. فلم يُغادر القارئ والسامع الأطوار الثلاثة من النطفة والمضغة والعلقة؛ حتى آن أوان

---

١ جامع العلوم والحكم ص ٦٧.

الرزق والأجل والعمل والشقاوة والسّعادة، والجنة والنار! وتلك هي طريقة القرآن ولك أن تتأمّل آيات سورة الحجّ في مطلع ذكر خلق الإنسان وفي ختامه كيف بدأ بـ{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ}(الحج:٥) ثم خُتمت بـ{وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً}(الحج:٥)؛ فقد ضمّت المحيا والممات. وكذلك جاء ختام آيات سورة المؤمنون بقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}(المؤمنون:١٥،١٦)؛ وكل ذلك تأكيدا لمبدأ التكليف وخلافة الأرض وإعمارها بالعبودية والطاعة.

وهذا تراه كذلك في سورة (ق) عند قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}(ق:١٦) ثم {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ}(ق:١٩،٢٠) وفي آخر السورة {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ}(ق:٤٣) وفي سورة طه {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }(طه:٥٥) وفي سورة النجم عند ذكر سعي الإنسان {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى }(النجم:٤٢). {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}(النجم:٤٣-٤٧) وكذلك ما جاء في سورة الروم في قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(الروم:١١) وقوله عز وجل: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}(الروم:٤٠) وفي سورة العنكبوت {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(العنكبوت:٢٠).

المطلب الثاني: أركان الإيمان بالقدر:

القدر: علمٌ وكتابةٌ ومشيئةٌ وخلقٌ. فهو ـ أولا ـ تقديرُ الله الأشياء في القدم، وعلمُه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(العنكبوت:٦٢)، وقوله سبحانه: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً}(غافر:٧) وقوله عز وجل: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}(الطلاق:١٢)، وقوله تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}(الملك:١٤).

والقدر ـ ثانيا ـ كتابةُ الله جميع الأشياء في اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}(يس:١٢) و {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}(الحديد:٢٢)، {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}(الرعد:٣٩). وقد جاء في البخاري حديث عمران بن حصين أنّ النبيﷺ قال: (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء) وفي رواية أبي هريرةرضي الله عنه أنّ النبيﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي غلبت غضبي). وعند أحمد والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبيﷺ أنه قال: (أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب. فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة).

والقدر ـ ثالثا ـ مشيئة الله النافذة التي لا يردّها شيء، والقدرة الغالبة التي لا يعجزها شيء، كما قال سبحانه: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}(يس:٨٢)، وقال تعالى: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}(التكوير:٢٩)، وكما قال الله عز وجل: {مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ}(لأنعام:١١١)، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}(الأنعام:١١٢). وما أجلَّ قولَ نوح عليه الصلاة والسلام لقومه:

{وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}(هود:٣٤).

والقدر – رابعا – خلق الله كل شيء، كما قال عز وجل: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}(الزمر:٦٢) وقال تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}(فاطر:٣) وقال عز وجل: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}(الصافات:٩٦) وقال سبحانه: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}(الفرقان:٢).

المطلب الثالث: معنى حديث النبيﷺ (حَجَّ آدمُ مُوسى)، وهل فيه حُجةٌ للجَبْرية؟

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: "التحقيق أنَّ هذا الحديث رُوي بألفاظ كثيرة، بعضها مروي بالمعنى، وفيه نظر، ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة. فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة. والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أُخلق هو الله عز وجل. فأنت تلومني على أمرٍ ليس له نسبة إليَّ أكثر من أني نُهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها. وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي؛ فأنا لم أُخرِجْكم ونفسي من الجنة. وإنما كان هذا من قدرةِ الله وصُنعِه. وله الحكمة في هذا؛ فلهذا حجّ آدم موسى".[١]

ثم فنَّدَ رحمه الله تعالى شبهات الجبرية من وجوه: "أحدها: أنّ موسى عليه السلام لا يلوم على أمرٍ قد تاب منه فاعله. الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في ذلك بقوله {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ}(القصص:١٦)الآية. الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدِّم كتابتُه على العبد، لانفتح هذا لكل من لِيمَ

١ البداية والنهاية لابن كثير ٨٤/١ –٨٥.

على أمرٍ قد فعله؛ فيحتجّ بالقدر السابق فينسدّ باب القصاص والحدود. ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه ـ في الأمور الكبار والصغار ـ وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة. فلهذا قال من قال من العلماء بأنّ جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية".[1]

المطلب الرابع: ثمرات الإيمان بالقدر:

[١] الاعتصام بحبل الله والإنابة إليه والتوكّل عليه؛ إذ {إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}(آل عمران:١٥٤) {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}(النحل:٥٣) {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}(فاطر:٣) {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}(فاطر:٢) وفي البخاري من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ(سمعت النبي ﷺيقول خلف الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت. ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ) وفي حديث أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺقال (تعوّذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء) وقد قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}(الشعراء:٧٧-٨٢) ولذلك كان شعار كل عبد صالح {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}(غافر:٤٤) {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}(إبراهيم:١٢).

---

١ المرجع السابق ٨٥/١.

[٢] الصبر والاحتساب عند المصيبة والشكر عند النعمة؛ لما تغرسه الآيات في قلب المؤمن من أنّ القدر مكتوبٌ على المرء في بطن أمه كما قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}(الحديد:٢٢)؛ ومن هنا قال سحرة فرعون {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}(طه:٧٢).

[٣] حسن اليقين بالأجل والرزق؛ لأنّ ذلك مُسجَّل في الكتاب {فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ }(يونس:٤٩) حيث يؤمر الملك بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. وكما قال النبي ﷺ(إنّ روح القدس نفث في روعي أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها) وقال لحبر الأمة عبد الله بن عباس (يا غلام إني أعلّمك كلمات...).

[٤] ملازمة التقوى والاحتياط من المعاصي والحذر من أن يُختَم سجل العمر بما يسخط الله؛ لأنّ (العمل بالخواتيم) كما قال النبيﷺ؛ ومن هنا قال العلامة ابن أبي جمرة: "هذه هي التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال؛ لأنهم لا يدرون بماذا يختم لهم؟"[١] وقد قال عبد الحق في كتاب العاقبة: "إنّ سوء الخاتمة لا يقع لمن استقام باطنه وصلح ظاهره. وإنما يقع لمن في طويته فسادٌ وارتيابٌ، ويكثر وقوعه للمُصِرِّ على الكبائر والمجترئ على العظائم؛ فيهجم عليه الموت بغتةً، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة".[٢] وقال ابن رجب: "إنّ خاتمة السوء تكون بسبب دسيسةٍ باطنةٍ لا يطّلع عليها الناس: إمّا من جهة عملٍ سيئٍ، ونحو

١ نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٣ / ٣٢٥.
٢ المرجع السابق ١٣ / ٣٢٦.

ذلك. فتلك الخصلة الخفية تُوجِب سوء الخاتمة عند الموت... وبالجملة فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق".[1]

ولله درّ ابن القيم ما أحسنَ قولَه (طوبى لمن أنصف ربَّه، فأقرّ له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن أخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنةٌ وصدقةٌ ثانية، وإن ردّها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخلِّيه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه؛ وذلك من عدله فيه. فيرى في ذلك فقره إلى ربه وظلمه لنفسه، فإن غفرها فبمحض إحسانه و جوده وكرمه. ونكتةُ المسألة وسِرُّها أنه لا يرى ربَّه إلا مُحسِناً، ولا يرى نفسَه إلا مُسيئاً أو مُفرِّطاً أو مُقصِّراً، فيرى كل ما يَسُرُّه من فضلِ ربِّه عليه وإحسانِه إليه، وكل ما يسوءه مِن ذنوبه وعدلِ الله فيه).[2]

المبحث الرابع: درس (التحذير من الابتداع في الدين):

ويضم الحديث الخامس، والحديث الثامن والعشرين، والحديث الحادي والأربعين.

---

١ جامع العلوم والحِكَم لابن رجب الحنبلي ص ٧٨- ٧٩.
٢ الفوائد لابن القيم ص ٣٣.

الحديث الخامس: عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها[1] قالت: قال رسول اللهﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ) رواه البخاري ومسلم. وفي رواية لمسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ).

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي نجيح العرباض بن ساريةرضي الله عنه[2] قال: وعظنا رسول اللهﷺ موعظةً وَجِلَتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسولَ الله كأنها موعظةُ مُودِّعٍ فأوْصِنا. قال: أُوصِيكم بتقوى الله عزَّ وجلَّ والسمعَ والطاعةَ وإن تأمَّرَ عليكم عَبْدٌ، فإنه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي؛ فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشِدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنواجِذ، وإياكم ومُحدَثات الأمور؛ فإنّ كل بدعة ضلالة) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

---

١ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: الصدّيقة بنت الصدّيق، زوج النبيﷺ تزوّجها بمكة قبل الهجرة بسنتين أو ثلاثة، "وبنى بها بالمدينة بعد مُنْصَرفِه من وقعة بدر في شوّال سنة اثنتين من الهجرة وهي بنت تسع سنين" تهذيب الكمال ٢٢٧/٣٥. وقد روى البخاري في فضلها رضي الله عنها قول النبيﷺ: (يا عائشُ هذا جبريل يقرئك السلام) وقولهﷺ: (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)، وقولهﷺ لأمّ سلمة: (يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن سواها)، وقال عماررضي الله عنه: (إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة) وبشّرها ابن عباس رضي الله عنهما لما اشتكت فقال: (يا أم المؤمنين تقدمين على فرطٍ صدق: على رسول اللهﷺ وعلى أبي بكر). فتح الباري ٤٧٨/٧ – ٤٧٩. ويكفيها فضلاً رضي الله عنها ما أجاب به النبيﷺ عمرو بن العاص لما سأله: أي الناس أحبّ إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها) رواه الشيخان. وما أجاب به فاطمة رضي الله عنها لما أرسلنها أزواج النبيﷺ يسألنه العدل في عائشة فقال لها رسول اللهﷺ: (أي بنيَّة ألستِ تحبّين ما أحبّ؟ فقالت: بلى. قال: فأحبِّي هذه) رواه مسلم. وقد روى المزي قول الشعبي: "كان مسروق إذا حدّث عن عائشة قال: حدّثتني الصادقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرّأة من فوق سبع سماوات"، وقول عروة بن الزبير: "ما رأيت أحداً أعلم بفقه وبطبٍّ ولا شعرٍ من عائشة، أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا في العامة" تهذيب الكمال ٢٣٤/٣٥. ومن هنا وصفها الذهبي بأنها :"من أكبر فقهاء الصحابة، كان فقهاء أصحاب رسول اللهﷺيرجعون إليها. تفقه بها جماعة" تذكرة الحفاظ ٢٧/١. توفيت رضي الله عنها في سنة سبع وخمسين رحمها الله تعالى.

٢ العرباض بن ساريةرضي الله عنه: هو أبو نَجيح السُّلمي، من أهل الصّفّة، وهو أحد البكّائين الذين نزل فيهم قول الله تعالى: {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ}(التوبة:٩٢)، قال محمد بن عوف: "كلّ واحد من عمرو بن عَنَبسة والعرباض بن سارية يقول: أنا ربع الإسلام. لا يُدرى أيهما أسلم قبل صاحبه". وقال شُريح بن عبيد: "كان عتبة بن عُبيد يقول: العرباض خير منّي، وعرباض يقول: عُتبة خير منّي. سبقني إلى النبيﷺ". وذكر خليفة بن خيّاط في طبقاته أنّ العرباضرضي الله عنه توفى في فتنة ابن الزبير وذلك سنة خمس وسبعين (تهذيب الكمال ٥٥٠/١٩ – ٥٥١).

الحديث الحادي والأربعون: عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص[1] قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.[2]

المطلب الأول: فقه الأحاديث الثلاثة:

[١] لا تخفى العلاقة الوثيقة بين قوله ﷺ في الحديث الأول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه)، وقوله في الحديث الثاني: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومحدثات الأمور فإنّ كل بدعة ضلالة)، وقوله ﷺ في الحديث الثالث: (حتى يكون هواه تبعا لما جئت به). وهي علاقة (الأمر بالمحافظة على السنة) و(النهي

---

١ عبد الله بن عمرو بن العاص: ترجم له الذهبي رحمه الله بقوله: "العالم الرباني أبو محمد وأبو عبد الرحمن القرشي السّهمي، أحد من هاجر هو وأبوه قبل الفتح. وأبوه أسنّ منه بأحد عشر عاما فقط. وكان النبي ﷺ يفضّله على والده. وقد كان من أيام النبي ﷺ صوّاما قوّاما تالياً لكتاب الله طلابة للعلم، كتب عن النبي ﷺ علما كثيرا، وكان يعترف له أبو هريرة بالإكثار من العلم، وقال: فإنه كان يكتب عن النبي ﷺ وكنت لا أكتب. وكان خيِّراً مقبلا على شأنه، ويلوم أباه على القيام نوبة الفتنة. ويتأثم من القعود عنه خوف العقوق؛ فحضر صفّين ولم يسلّ سيفاً"تذكرة الحفاظ ٤٢/١. توفي ﷺ سنة خمس وستين في أكثر الأقوال. راجع (تهذيب الكمال ٣٦٢/١٥ وتذكرة الحفاظ ٤٢/١).

٢ ملاحظة: في ذكر الحافظ النووي رحمه الله حديث (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)، وقبول الحافظ ابن رجب لمعناه مثالٌ من طريقة المحدّثين في أنهم ربما ذكروا الحديث الذي فيه ضعفٌ من جهة إسناده من باب جبره بالشواهد على معناه من القرآن أو السنة. فحديثُنا هذا مداره على نُعيم بن حماد وهو ضعيفٌ عند كثير من نقاد الحديث. كما أنّ فيه شيخ عبد الوهاب الثقفي، وهو مجهول. ولكن انصبَّ نظرُ النووي وابن رجب على صحة المعنى، قال ابن رجب بعد أن ذكر ضعف الإسناد: "أما معنى الحديث فهو أنَّ الإنسانَ لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب، حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها؛ فيُجب ما أمرَ به ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآنُ بمثل هذا في غير موضع، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}(النساء:٦٥)، وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}(الأحزاب:٣٦) وذمّ سبحانه من كره ما أحبّ الله، وأحبّ ما كرهه الله قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}(محمد:٩)، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}(محمد:٢٨). فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإذا زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلا، وأن يكره ما كرهه الله تعالى كراهة توجب الكفّ عما حرّم عليه، فإذا زادت الكراهة حتى أوجبت الكفّ عما كره تنزيها كان ذلك فضلا".

مع التنبيه هاهنا إلى أنَّ ابنَ رجب لم يوافق النووي على تصحيح الحديث، بل قال: "تصحيح هذا الحديث بعيد جدا من وجوه..." ومع ذلك أثبت صحة معناه ولولا قول النووي: (رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح)؛ لحملنا ذلك على إرادة صحة المعنى. وما زال العلماء يختلفون في الحكم على معنى الأحاديث والرجال؛ ولعل تصحيح النووي كان اعتمادا على توثيق بعض الأئمة لنعيم وإخراج البخاري له. والله أعلم.

عن البدع ومحدثات الأمور)؛ ولهذا أخرج النووي رحمه الله حديث العرباضﷺ في هذين البابين من رياض الصالحين.[1]

[٢] لا بدَّ من ربطِ النصوصِ بعضِها ببعضٍ جمعاً وتوفيقاً؛ فقد عُلِمَ أنَّ الولاية الكبرى للمسلمين يُشترَط فيها الحرية والقرشية ...الخ ومن هنا قال أبو سليمان الخطابي في شرح سنن أبي داود: "قوله: (وإنْ عبداً حبشياً) يريد طاعة من ولاه الإمام عليكم بسنتي وإن كان عبدا حبشياً. وقد ثبت عنهﷺ أنه قال: (الأئمة من قريش). وقد يُضرَبُ المثل في الشيء بما لا يكاد يصح منه الوجود كقولهﷺ: (مَن بنى لله مسجداً ولو مثل مَفْحَصِ قَطاةٍ؛ بنى الله له بيتا في الجنة)؛ وقدر مَفْحَص قَطاة لا يكون مسجدا لشخص آدمي، وكقوله: (لو سرقت فاطمة لقطعت يدها). وهي رضي الله عنها لا يتوهَّم عليها السرقة. وقال: (لعن الله السارق يسرق البيضة فتُقطع يده) ونظائر هذا في الكلام كثير".[2]

[٣] في قول النبيﷺ: (عَضُّوا عليها بالنواجِذ) أبلغ الأمثال؛ لأنها تتناول أكثرَ من معنى، وهذه خصيصةٌ من أوتيَ جوامع الكلمﷺ قال الخطابي: "أراد بذلك الجِدَّ في لزوم السنة فِعْلَ من أمسك الشيء بين أضراسه وعضّ عليه منعاً له أن يُنتَزع؛ وذلك أشدّ ما يكون من التمسّك بالشيء إذ كان ما يمسكه بمقاديم فمه أقرب تناولاً وأسهل انتزاعاً. وقد يكون معناه أيضاً الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه".[3]

---

١ رياض الصالحين ض ١١١ – ١١٨.
٢ معالم السنن ٣٠٠/٤ – ٣٠١.
٣ المرجع السابق ٣٠١/٤.

[٤] وفَّقَ أهلُ العلم بين ما جاء في صحيح مسلم من حديث جرير: (مَن سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) وبين هذه الأحاديث الواردة في ذمّ البدع، مع قول عمر ﷺفي التراويح: (نعمت البدعة هذه) بأنّ ما كان مندرجا تحت أصلٍ من أصول الإسلام، لا يُعتبر بدعة، بل هو سنة، وأما ما كان في معنى المخالفة للسنة وإحداث تشريع ما أنزل الله به من سلطان فتلك هي البدعة، وهذا كالمتفق عليه بين أهل العلم. قال الخطابي: "قوله (كل محدثة بدعة) فإنّ هذا خاص في بعض الأمور دون بعض، وكل شيء أُحدِث على غيرِ أصلٍ من أُصول الدين وعلى غير عِياره وقياسِه، وأما ما كان منها مَبنياً على قواعدِ الأصول ومردوداً إليها؛ فليس ببدعة ولا ضلالة".[١]وقال ابن رجب: "المراد بالبدعة ما أُحدِث مما لا أصلَ له في الشريعة يدلُّ عليه، وأما ما كان له أصلٌ من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا"،[٢] وقال ابن حجر: "المحدَثات ـ بفتح الدال ـ جمع مُحْدَثة. والمراد بها ما أُحْدِثَ وليس له أصلٌ في الشرع، ويُسمَّى في عُرفِ الشرع بدعة، وما كان له أصلٌ يدُل عليه فليس ببدعة".[٣]

١ معالم السنن ٣٠١/١.
٢ جامع العلوم والحكم ص ٣٥٧.
٣ فتح الباري ١٧٨/١٥ ـ١٧٩.

المطلب الثاني: خلاف العلماء في تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة:

منع بعض العلماء تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة؛ لئلا توصف البدعة ـ وهي مذمومة شرعا ـ بالحُسن فيكون في ذلك مضادَّة لقول النبيﷺ (كل بدعة ضلالة).[1] ولم يرَ بعض العلماء بأساً في إطلاق وصف الحسن على البدعة إذا كانت في حقيقة الأمر سنة، كما قال الشافعي فيما أخرجه أبو نعيم: "البدعة بدعتان: محمودة ومذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالفها فهو مذموم"، وأخرج البيهقي في مناقب الشافعي قوله: "المحدثات ضربان: ما أُحدِث يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهذه بدعة الضلال، وما أُحدِث من الخير لا يُخالف شيئا من ذلك فهذه مُحدَثة غير مذمومة".[2]وقال ابن الأثير: "البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلال، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسولهﷺ فهو في حيِّز الذمّ والإنكار. وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه وحضَ عليه ـ أو رسوله ـ فهو في حيّز المدح. وما لم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجود وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة. ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به؛ لأنّ النبيﷺ قد جعل له في ذلك ثوابا فقال (مَن سَنَّ سنةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها) وقال في ضدِّه (مَن سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها)؛ وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسولهﷺ". ومثّل للبدعة الحسنة بقول عمر في صلاة التراويح (نعمت البدعة)، ثم قال: وهي على الحقيقة سنة لقولهﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، وقوله: (اقتدوا باللّذيْن من بعدي

---

١ راجع كلام ابن تيمية رحمه الله في [اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ٢/٩٠وما بعدها]

٢ فتح الباري ١٥/١٧٥.

أبي بكر وعمر)، وعلى هذا التأويل يُحمَل الحديث الآخر (كل محدثة بدعة) على ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة".[1]

هذا، وقد ثبت من لفظ النبيﷺ تقسيم السنة إلى حسنة وسيئة، وثبت في لفظ عمر (نعمت البدعة هذه)، مع ملاحظة أنّ هذا التقسيم إنما يكون عند التقييد بأحد الوصفين مثل (بدعة حسنة) أو(سنة سيئة)، وأما عند الإطلاق فتنصرف السُّنة إلى المعنى المحمود، كما قال النبيﷺ: (عليكم بسنتي)، وتنصرف البدعة إلى المعنى المذموم كما في قول النبيﷺ: (إياكم ومحدثات الأمور فإنّ كل محدثة بدعة). فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وَجْهيٌّ؛ إذ يشتركان في عُمومِ الإحداث، وتختصُّ السنةُ بإحداث المحمود، وتختص البدعة بإحداث المذموم.

وقد وجَّهَ بعضُ العلماء ما ثبت من إطلاقِ الحسنِ على البدعة على المعنى اللُّغوي في ذلك وهو معنى الإحداث. قال ابن تيمية: "أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك (بدعة) مع حُسنِها. وهذه تسميةٌ لغويةٌ لا تسمية شرعية؛ وذلك أنَّ البدعة في اللغة تعمُّ كل ما فُعل ابتداءً من غير سالف. وأما البدعة الشرعية فما لم يدلّ عليه دليل شرعي... فلفظ البدعة في اللغة أعَمُّ من لفظ البدعة في الشريعة".[2] قال ابن رجب: "وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية. فمن ذلك قول عمر رضي الله عنهلما جمع الناس لقيام رمضان على إمامٍ واحدٍ في المسجد وخرج ورآهم يُصلُّون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه".[3]

---

١ النهاية في غريب الحديث ٧٩/١ استفدته من [البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها.د. عزت علي عطية ص ١٦١ – ١٦٢]

٢ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ٩٥/٢ – ٩٦.

٣ جامع العلوم والحكم ص ٣٥٨.

وقال ابن حجر: "فالبدعة في عُرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة؛ فإنّ كل شيء أُحدِث على غير مثال سابق يسمى بدعة سواءٌ كان محمودا أو مذموما".[1] وكلام الشاطبي في تقرير ذلك في كتاب (الاعتصام) مشهور.[2]

ولعلّ الأقربَ إلى البلاغة النبوية والأسلمَ من الاعتراض أن يُقال: خرج هذان اللفظان مَخرجَ المشاكَلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته؛ فالمشاكَلة المحققة ظاهرة في تعبير النبيﷺ عن البدعة بـ(السنة السيئة)لوقوعها في صحبة (السنة الحسنة). وذلك مثل تعبيرهﷺ عن الغبطة بالحسد في حديث (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هَلَكَتِه في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها)، قال النووي: "معناه: ينبغي ألا يُغبَطَ أحدٌ إلا على إحدى هاتين الخصلتين"،[3] وقال ابن رجب: "هذا هو الغبطة؛ وسمَّاه حَسداً من باب الاستعارة".[4]

وهذا الأسلوب قد عرفه العرب في لسانِهم وألِفُوه في بلاغتِهم؛ حيث إنهم يذكرون الشيءَ باللفظِ المصاحب له من غير أن يتوهَّمَ السامعُ تغييرا في معنى اللفظ الأول أو إشْراباً لمعنى اللفظ المصاحب. فالمشاكلة صورة اللفظ المصاحِب مع بقاء معنى الأصل، ومثل ذلك في كتاب الله كثيرٌ.[5]

---

١ فتح الباري ١٧٩/١٥.

٢ وقد كنتُ متردداً في هذا الأمر حتى وافقني على ذلك العلامة اللّغوي الشيخ محمد علي الطريفي رئيس هيئة الفتوى بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والشيخ المحدّث مساعد بشير علي والشيخ الدكتور عبد الحي يوسف نفع المسلمين بعلمهم.

٣رياض الصالحين ص٢٥٢.

٤ جامع العلوم والحكم ص٤٣٤.

٥ نحو قوله عزّ وجلَّ: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}(الشورى:٤٠) والله لا يأمر بالسيئة بل المراد معنى المجازاة والعقوبة وإن خرج بلفظ السيئة لوقوعه في صحبته. وقد ذكر الإمام ابن جرير والحافظ ابن كثير وجهاً من وجوه التفسير في قوله تعالى: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}(البقرة:١٥): "هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل

تنبيه: لا ريب أنّ الأصلح في زماننا والأقرب إلى الاحتياط والأسلم في الاعتقاد والعمل أن يُغلق باب الفساد الناجم عن التساهل في الاصطلاح وتُسدّ ذريعة الفتنة؛ فليس زماننا كزمان الشافعي وابن الأثير وابن عبد

لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك، ولم يكن منه خديعة؛ ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه. قالوا: وكذلك قوله تعال: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}(آل عمران:٥٤)؛ و{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} على الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء. والمعنى أنّ المكر والهزء حاق بهم. وقال آخرون: قوله تعالى: (إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم) وقوله: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}(النساء:١٤٢) وقوله: {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ}(التوبة:٧٩) و{نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ}(التوبة:٦٧) وما أشبه ذلك إخبارٌ من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع؛ فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ}(الشورى:٤٠) وقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ}(البقرة:١٩٤)، فالأول ظلم والثاني عدل؛ فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما. قال: وإلى هذا المعنى وجّهوا كل ما في القرآن..." تفسير القرآن العظيم ٧٣/١".

وهذا أشبه ما يكون بـ(السنة الحسنة والسيئة). وقل مثل ذلك في قوله تعالى:(وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) (سبأ:١٦). ومنه في كلام العرب قول أحمد بن محمد الأنطاكي :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبّةً وقميصا!

وقول أبي تمام:

مَن مُبلغ أفناء يعرب كلها أني بنيتُ الجار قبل المنزل!

قال الخطيب القزويني: "كأنه قال: خيطوا لي... ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار" الإيضاح في علوم البلاغة ص ١٩٩، يريد أنه أقام (طبخ الجبة والقميص) مقام (الخياطة)؛ لوقوعها في صحبة الطعام، وكذلك أقام (بناء الجار) مقام (بناء الدار) مُشاكَلةً للجار بالدار. وأما قول عمرﷺ فمن قبيل المشاكلة التقديرية، وهي عبارةٌ عن الإشارة إلى صورةٍ حاضرةٍ في الذهنِ وإخراج اللفظِ مُستصحبا لذلك الاعتبار وإن خلا المعنى هنا من ذكره تحقيقاً، لكنه مُقدَّرٌ معلومٌ من السياق والقرائن. وقد مثلوا لذلك في كتاب الله بقوله عز وجل: (صبغة الله)، قال الخطيب القزويني: "والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه (المعمودية)، ويقولون هو تطهير لهم؛ فأُمر المسلمون بأن يقولوا لهم (قولوا آمنا بالله)، وصبغنا الله صبغة لا مثل صبغتكم وطهرنا به تطهيرا لا مثل تطهيركم... وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، وإن لم يكن قد تقدَّم لفظُ الصبغ؛ لأن قرينة الحال... دلت على ذلك" (المرجع السابق)، فكذلك ههنا ينزل قول عمرﷺ تلك المنزلة، فيُقال: قد أشار بقوله: (نعمت البدعة هذه) إلى أن هذه السنة ليست من البدع المذمومة في شيء بل هي سنة حميدة فأَنْعِمْ بها. وأخرج السنة بلفظ البدعة الحسنة من باب المشاكلة التقديرية؛ استصحابا لذلك المعنى المتبادر للذهن، مع دلالة القرائن على ذلك من نحو الإشارة إلى مفهوم المخالفة من قوله: (نعمت)، وهو تحريرٌ لها من البدعة المذمومة شرعا. ومنها كذلك ما عُهِدَ عند اللغويين والنحويين من اقتران لفظي(نعم) و(بئس)؛ بحيث إذا طرق السمعَ أحدُهما تمثّل في الذهن قَرينُه كما قيل: (وبضدها تتميز الأشياء). ومن هذا الباب ما ذكره علماء الجرح والتعديل من قول شُعبة لبعض أهل الحديث: "تعال حتى نغتاب ساعةً في سبيل الله"؛ يريد بالغيبة الكلام في الرواة جرحاً وتعديلا.

وقد يُحمل كذلك حديث النبيﷺ على الطباق الظاهر، ويُحمل قول عمرﷺ على الطباق المعنوي. وهو الجمع بين أمرٍ وما يتعلق بمقابله، فمثال الأول (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)، ومثال الآخر الطباق الخفي بين قول الكفار: (إن أنتم إلا تكذبون)، وقول الرسل الكرام عليهم السلام: (إنا إليكم مرسلون). راجع (علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ١٢/٢-١٤) د.بسيوني عبد الفتاح بسيوني. فلعلّ الحمل على بعض المعاني البلاغية أولى من مجرد الحمل على المعنى اللغوي.والله أعلم بالصواب.

السلام؛ بل نحن في زمانٍ تمكَّنَتْ فيه البدعُ وعَزَّتْ فيه السنن، وقلّ فيه العلماء وكثر الخطباء، وانتشرت فيه المصطلحات غير الشرعية؛ بحيث لا يُؤمَن على بعض الناس أن تشتبه عليهم السنة بالبدعة إذا اعتادوا على سماع لفظ (بدعة حسنة)، فضلا عن أن يكون ذلك مدعاةً إلى التساهل في المبتدعات. ولا شك أنّ الاقتصار على إطلاق البدعة والسنة على معنييهما المرادين منهما عند الإطلاق أقرب إلى مقصد الشرع في التنفير من البدعة والحثّ على السنة. ورحم الله ابن مسعود فقد ذكر الذهبي في (تذكرة الحفاظ) قوله: "الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة".

المطلب الثالث: هذه الأحاديث أصل في أنّ الدين من أمر الله ورسوله؛ ليس لأحد من الناس فيه حقّ تشريع بزيادة أو نقص أو ردّ أو نسخ، كما قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}(الشورى:٢١)؛[1] فليس الشرع تابعا لأهواء العباد، بل لا يصح إيمان العباد حتى يكون هواهم تبعا لما جاء به محمدﷺ تحكيما وتسليماً، كما قال الله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}(النساء:٦٥). وتأمَّلْ عبارات (في أمرنا) و(ليس عليه أمرنا) و(لما جئت به)، واعرضها على ما في كتاب الله تجدها متوافقةً متطابقةً: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي}(الأعراف:٢٠٣)، {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} (الحاقة:٤٤،٤٥)؛ وحاشا لسيّد المرسلينﷺ أن يتقوّل على ربه {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

---

١ راجع ابن تيمية في [اقتضاء الصراط المستقيم].

وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}(آل عمران:٧٩).[١]

المطلب الرابع: الموعظة البليغة بمثابة الغيث النافع الذي يُحيى الأرض بعد موتها:

كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}(إبراهيم:٢٤،٢٥)، وقال النبيﷺ: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت العشب الكثير...)حتى قال: (فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم)، رواه البخاري في كتاب العلم. وفي رواية مسلم: (طائفةٌ طيّبةٌ).

المطلب الخامس: شروط الموعظة النافعة:

ولكن لا بد من توفر شروط هامّة في الخطيب، منها:

أولاً: البلاغة: كما جاء ههنا (وعظنا رسول اللهﷺ موعظةً بليغة)، قال ابن رجب: "والبلاغة في الخطْبة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قَبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة

١ورحم الله العلامة محمد سعيد رمضان البوطي حيث مثَّل في كتابه القيّم (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية) بحديث ابن عباسؓ الذي رواه الشيخان في شأن هلال بن أميةؓ حين قذف امرأته بشريك بن السحماء فحكم النبيﷺ بينهما بالملاعنة ثم قال: "أبْصِرُوها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خَدلَّج الساقين فهو لشريك بن السحماء، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية. فجاءت به على النعت الأول فقال النبيﷺ: (لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن) يريد بالشأن – والله أعلم – أنه يحدها لمشابهة ولدها الرجل الذي رُميت به. ولقناعة وجدان الرسولﷺ بذلك، ولكن كتاب الله أسقط كل قول وراءه. ففي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ على أنّ المجتهد وإن توهّم المصلحة في حكم ما. ليس له اتباع تلك المصلحة إذا كان في ذلك تجاوزٌ عن حكم قضى به كتاب الله تعالى. حتى وإن كان ذلك المجتهد محمداً رسول اللهﷺ". (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ص ١٣٠ – ١٣١).

وإيضاحها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع وأوقرها في القلوب".[1]

ثانيا: حسن عرض الآيات والأحاديث وبيان المسائل الشرعية بحيث تنشرح العقول لتفهّمها؛ وربَّ دليل يُستعمَل في باب دقيق لا يخطر على البال كصنيع البخاري في صحيحه فتتشوّق النفوس إلى سماعه، وتزداد به انتباها وفهماً.

ثالثاً: التزام التوثيق والأمانة العلمية وتعليم الناس محبة الدليل وذلك بالعزو إلى البخاري ومسلم والموطأ وغيرها من كتب العلوم ـ وهذا يكاد أن يكون مفقودا ـ وأما تعميم الكلام والإغراق في الشعارات والميل إلى العبارات الفضفاضة فليس من العلم في شيء.

رابعاً: الحرص على الإيجاز في الكلام والاقتصار على القليل النافع، وكما أنّ قِصَر الخطبة مَئِنَّةٌ فقه الخطيب، فكذلك التطويل والمبالغة في التكرار والإسهاب من غير حاجة مَظنَّةُ جَهْلِه. وإذا كان أعظم خطيب لا يُمَلُّ حديثهﷺ يلتزم بالإيجاز وهو يخاطب أحرص الناس على استماعه ممن يستزيدون ولا يضجرون فيخاف عليهم السآمة؛ فغيرهم من باب أولى. ولا شكَّ أنّ تجاهلَ السنة في ذلك مَدعاةٌ إلى إملالِ الناس وتشويشِ أذهانِهم من ناحية، وسبب في الوقوع في الأخطاء والسّفسطة وخروج الخطيب عن المقصود واشتغال السامع بما لا ينفعه ولا يعنيه من ناحية أخرى. ولله در ابن مسعودرضي الله عنه ـ ما كان أفقهه ـ فقد التزم بهذين الأدبين في قولِه وفعلِه كما أخرج البخاري في كتاب العلم (باب ما كان النبيﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا)، أورد فيه حديث ابن مسعود قال:

---

١ جامع العلوم والحكم ص ٣٤٨.

(كان النبيﷺ يتخولنا بالموعظة بالأيام كراهة السآمة علينا)، وباب (من جعل لأهل العلم أياما معلومة) ذكر فيه حديث أبي وائل قال: "كان عبد الله يذكّر الناس في كل خميسٍ فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكَّرْتَنا كلَّ يوم قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُملّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبيﷺ يتخوّلنا بها مخافة السآمة علينا". ورحم الله البخاري فقد ذكر هذين البابين بين ترجمتين: هما (باب العلم قبل القول والعمل)، و(باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ولا يخفى عليك ما بين ذلك من المناسبة!

خامساً: إظهار الشفقة ورقة النفس وإخلاص النّصح. وقد كان النبيﷺ يصنع هذا مع كفار قريش؛ حتى خاطبه ربّه بقوله سبحانه: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً}(الكهف:٦)،{فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} (فاطر:٨).

سادساً: مُراعاة مقتضى الحال من ذكر المسائل المناسبة للسّامعين، من حيث اهتمامهم بهذه القضايا وتأثرهم بطريقة عرضها. فليس خطاب العلماء كخطاب العامة، وليس خطاب الرجال كخطاب النساء، وليس خطاب الشّيب كخطاب الشباب. وهذا يجمع لك ما في تراجم البخاري في كتاب العلم (باب من خصّ قوما دون قوم كراهية أن لا يفقهوا) و(باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه). ورحم الله ابن عباس فقد منع عمر من الكلام في الأمور الدقيقة بعيدا عن العُصبة الداعية والبيئة الواعية بالمدينة.

سابعاً: الاعتناء بشأن الموعظة وإعداد العُدّة، فهذه الذكرى التي تنفع المؤمنين. فإنّ من جهل الخطيب أن يظن أن الناس غير مميّزين للصالح من الطالح. فالسامع ينقد بعقله ويغربل بأذنه ويُنكر بقلبه؛ ولهذا ترى كبار

العلماء يتهيّبون أن يخاطبوا الناس عفو الخاطر إلا لضرورة، وتجدهم يعدّون الدروس ويراجعون المسائل.[1]

ثامناً: التواضع وإشعار السامعين بأنك تذكّر نفسك وتذكّرهم معك، فلست تزكّي نفسك أو تتشبّع بما ليس عندك، بل تتمثل قول إبراهيم التيمي (ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذَبا)، علّقه البخاري في كتاب الإيمان باب (خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر)، قال ابن حجر: "يعني خشيت أن يكذّبني من رأى عملي مخالفاً لقولي فيقول: لو كنت صادقا ما فعلتَ خلافا لما تقول؛ وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويُروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر، ومعناه أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذمّ الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال: {كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}(الصف:٣) فخشي أن يكون مكذِّبا أي مشابها للمكذبين"[2]. وما أحسن استحضار أنّ التذكرة أمانةٌ تؤديها ومن باب (أعْطِ القوس باريها) ورحم الله من أنشد:

أخذتَ بأعضائهم إذ وَنَوْا وخلَّفَك الجَهْدُ إذ أسرعوا
وأصبحتَ تَهْدِي ولا تهتدي وتُسمِع وعظاً ولا تَسمعُ
فيا حجرَ الشحذِ حتى متىتسُنُّ الحديدَ ولا تقطعُ ؟!

تاسعاً: توعية الناس بقضايا المسلمين وهموم الدعوة ومخاطبتهم بمفاهيم الإسلام فيما يعرض لهم في حياتهم كلها. وإنك إذا تركتَ الناسَ وهمومَهم التي تُقِضُّ مضاجعَهم ولم تَهْدِهم بنورِ القرآن والسنة في حَيرتِهم، وطفقتَ تُحدِّثهم بمفهوم المخالفة والموافقة؛ كانوا أقرب إلى مخالفتك منهم إلى الموافقة، وإذا استرسلتَ في مسائل المنكر والشاذ؛

---

١ كما كان يصنع العلامة الشيخ محمد علي الطريفي مع رسوخه في العلم، رحمة الله عليه.
٢فتح الباري ١٥٢/١. وذكر أنّ الحديث وصله البخاري في تاريخه وأحمد في الزهد.

جعلوا كلامَك من ذلك القبيل، وإذا تماديت في موازين الصّرف والإعراب والبناء؛ اعتبروك من الأعراب الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء!

عاشراً: الحذر من الوقوع في تضليل الناس وتبديعهم بغير وجه حق، بل جهلاً وتعنّتاً وتعصُّباً مذهبياً، والإسراف في إثارة القضايا الخلافية والتنابز بالألقاب والجرأة على العلماء؛ فإنّ في ذلك فتنةً وتفريقاً للمسلمين؛ ورُبّ كلمةٍ يقولها المرء لا يلقي لها بالاً تهوي به في جهنم سبعين خريفا {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً}(الجن:١٨)، ورحم الله الذهبي حيث قال: "تكلم الناس في أحمد. ومن يسلم من الكلام بعد أحمد".[١]

ووالله لو عرف الخطباء ـ والكتّاب كذلك ـ أهمية الموعظة الحسنة وفقهوا بركة الذّكرى النافعة للمؤمنين وجمعوا للأمر عُدَّته لعاد للمسلمين مجدهم وعزّهم {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}(الرعد:١١). ورحم الله هشام بن حسان فقد (كانت رؤيته تُبكي) كما نقل الذهبي في ترجمته في [تذكرة الحفاظ] وما أصدق قول عبد العزيز أبي روّاد "إذا ذُكِرَتْ أحوالُ السلفِ بينَنا افتَضحْنا كلُّنا"!

المطلب السادس: المعاني التربوية:

في قول العرباض بن سارية ﷺ- وهو أحد البكّائين ـ (وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون) دليلٌ على الوشيجة الرابطة بين القلوب الواجفة والعيون الذارفة {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}(الأنفال:٢) {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ

---

١ الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب الردّ للحافظ الذهبي ص ٣٩.

الشَّاهِدِينَ}(المائدة:٨٣). فبكاء العين علامة على معرفة القلب وحياته وصدقه .وقد قال النبيﷺ: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا).

فللبكاء فقه عظيم وهو أنواع كثيرة، منها:

[١] بكاء الخوف من الله، كما ترجم البخاري في كتاب الرقاق (باب البكاء من خشية الله عز وجل)، أورد فيه حديث أبي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺ: (سبعة يظلّهم الله في ظلّه...)، وفيه: (ورجل ذكر الله ففاضت عيناه)، وفي أبواب المساجد (ذكر الله خاليا). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وقد ورد في البكاء من خشية الله على وفق لفظ الترجمة حديث أبي ريحانة رفعه (حرّمتُ النار على عين بكت من خشية الله) الحديث أخرجه أحمد والنسائي وصحّحه الحاكم، وللترمذي نحوه عن ابن عباس ولفظه (لا تمسّها النار) وقال: حسن غريب، وعن أنس نحوه عند أبي يعلى، وعن أبي هريرة بلفظ (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله) الحديث وصحّحه الترمذى والحاكم".[١]

[٢] بكاء الندم والشعور بالتفريط في جنب الله، كما كان شأن كعب بن مالك وصاحبيهرضي الله عنهم حينما خُلِّفوا يوم تبوك، قال: (فأما صاحباي فاستكانا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق حتى قال: (حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمّي وأحبّ الناس إليّ، فسلّمتُ عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام. فقلت: يا أبا

---

١ فتح الباري ١٠٦/١٣.

قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت فعدتُ له فنشدته فسكت فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي".[1]

[٣] بكاء الفرح بالتوبة أو بهداية من يحب: كما جاء في قول كعب بن مالك لما سمع (صوت صارخ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً وقد عرفت أنه جاء بفرج)، وعند أبي عائذ (فخرّ ساجداً فرحا بالتوبة).[2] ومثل شأن أبي هريرةﷺ لما جاء إلى النبيﷺ يشكو كفر والدته قال (فأتيت رسول اللهﷺ وأنا أبكي فقلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي للإسلام فتأبى عليّ فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره)؛ فدعا لها النبي ﷺ فهداها الله للإسلام قال: (فأتيته وأنا أبكي من الفرح قال: قلت يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة).[3]

[٤] بكاء الشكوى والبثّ والحزن: كما كان شأن يعقوب عليه الصلاة والسلام {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}يوسف٨٤، وقد أخرج البخاري في (باب إذا بكى الإمام) حديث عبد الله بن شداد أنه سمع نشيج عمر وهو في آخر الصفوف يقرأ (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله). وقد يكون بكاء يعقوب عليه الصلاة والسلام مما يأتي وهو:

[٥] بكاء الرحمة والشفقة: ومن هذا بكاء النبيﷺ عندما دخل على سعد يزوره في مرضه، وحينما وضعوا بين يديه وليدة ابنته وقد ماتت؛

---

١ كتاب المغازي من البخاري [فتح الباري ٤٥٤/٨].
٢ فتح الباري ٤٦٣/٨.
٣ رواه مسلم في فضائل أبي هريرة [شرح النووي ٥٢/١٦].

فصارت نفسه تقعقع بأبي هو وأمي ﷺ. ومن ذلك بكاء الصّدّيق رضي الله عنه لما أخبر بوصول خبر الإفك إلى عائشة كما جاء في رواية هشام بن عروة قالت عائشة: (فاستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فقال لأمي: ما شأنها؟ فقالت: بلغها الذي ذُكر من شأنها. ففاضت عيناه).[1]

[٦] بكاء المراقبة لله واستشعار عظمته والتفكّر في نعمائه وآلائه والنظر في العواقب والمآلات. وقد فاز النبي ﷺ من هذا بالحظ الأكبر وحاز على النصيب الأوفر؛ لمكان فقهه ﷺ كما قال: (أما إني أتقاكم لله وأعلمكم به)، وقال (لو تعلمون ما أعلم...) وقد قرأ عليه ابن مسعود {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً}(النساء:٤١) فإذا عيناه تذرفان، ثم من بعده أبو بكر رضي الله عنه كما قالت عائشة: (إنّ أبا بكر رجل رقيق) وفي رواية (أَسِيف إذا قرأ القرآن لم يملك عينيه). ومن ذلك بكاء أُبيّ رضي الله عنه لما أخبره النبي ﷺ بأنّ الله أمره أن يقرأ عليه {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا} قال: آلله سمّاني لك؟ قال: الله سماك لي. قال: فجعل أبيّ يبكي، قال النووي: "أما بكاؤه فبكاء سرور واستصغار لنفسه عن تأهيله لهذه النعمة وإعطائه هذه المنزلة. والنعمة فيها من وجهين: أحدهما كونه منصوصا عليه بعينه؛ ولهذا قال (سماني؟) معناه: نصّ عليّ بعيني أم قال: اقرأ على واحد من أصحابك قال: سماك. فتزايدت النعمة. والثاني: قراءة النبي ﷺ فإنها منقبةٌ عظيمةٌ لم يشاركه فيها أحدٌ من الناس، وقيل: إنما بكى خوفا من تقصيره في شكر هذه النعمة".[2]

[٧] بكاء التحسر على ذهاب الخير وأهله: وقد كان للصّدّيق رضي الله عنه من ذلك خيرٌ كثيرٌ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد أنّ رسول

---

١ فتح الباري ٤٠٥/٩.
٢ شرح النووي على مسلم ٢١/١٦.

اللهﷺ صعد على المنبر فقال: عبدٌ خيَّرَه اللهُ بين أن يؤتيَه من زهرةِ الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده؛ فبكى أبو بكر وبكى فقال: قد فديناك بآبائنا وأمهاتنا قال فكان رسول اللهﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر أعلمنا به). وروى مالك في الموطأ أنّ النبيﷺ قال: (لا أدري ما تُحْدِثون بعدي)؛ فبكى أبو بكر ثم بكى فقال: أئنّا لكائنون بعدك؟).[1] ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أنسرضي الله عنه قال: قال أبو بكر بعد وفاة رسول اللهﷺ لعمر: (انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول اللهﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت فقالا لها ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أنَّ ما عند الله خير لرسول اللهﷺ، ولكن أبكِي أنَّ الوحيَ قد انقطع من السماء. فهيَّجَتْهما على البكاء؛ فجعلا يبكيان معها)، قال النووي: "فيه زيارة الصالحين وفضلها... والبكاء حُزناً على فراقِ الصالحين والأصحاب وإن كانوا قد انتقلوا إلى أفضل مما كانوا عليه".[2]

[٨] بكاء الشفقة على النفس من سوء الخاتمة: كما روى مالك في آخر كتاب الجامع من الموطأ حديث عمر بن عبد العزيزرضي الله عنه (حين خرج من المدينة التفت إليها فبكى ثم قال: يا مزاحم أتخشى أن نكون ممن نفت المدينة؟)؛[3] لأنّ المدينة تنفي خبثها كما جاء في الحديث مع أنهرضي الله عنه من مسكها وعنبرها. ومن ذلك بكاء الجنيد بين يدي السّري السقطي وكان غلاماً قال الذهبي في ترجمة الجنيد من (السير) فسأله عن الشكر فقال: "الشكر أن لا تستعين بنعم الله على معصية الله؛ فقال له السريّ: أخشى أن يكون حظّك من الله لسانك؛ قال: فما ذكرت ذلك إلا بكيت"!

---

١ قال ابن عبد لبر: مرسل عند جميع الرواة، لكن معناه يستند من وجوه صحاح كثيرة [الموطأ بتعليق فؤاد عبد الباقي ص ٤٦٢].
٢ شرح النووي على مسلم ١٠/١٦.
٣ الموطأ ص ٨٨٩.

وهذا بابٌ واسعٌ، وهو من العلم النافع. ورحم الله النووي ما أحسنَ قولَه عن البكاء: "إنه صفةُ العارفين، وشعارُ عبادِ الله الصالحين؛ قال الله تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً}(الإسراء:١٠٩).[١]

١التبيان في آداب حَمَلة القرآن للنووي ٤٥-٤٦